عَمْرو الجِنْدي

الغرباء

مجموعة قصصية

الطبعة
4

الغرباء

الكتاب : الغرباء

المؤلف : عمرو الجندي

تصميم الغلاف : أسامه علام

تدقيق لغوي : أحمد عبد المجيد

رقم الإيداع : 20381 / 2013

الترقيم الدولي : 978-977-6436-34-3

الطبعة الاولي : 2014

الطبعة الثانية : 2014

الطبعة الثالثة : 2014

الطبعة الرابعة : 2014



20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت-35860372-02 011-27772007

Noon_publishing@yahoo.com

الغرباء

مجموعة قصصية

عمرو الجندي



إهداء

إلى الطفل الصغير الذى أحببته كطفلي أنا

إلى الذي أعطيته اسمي

إلى الابتسامة التى تُعيد لي العالم من منبته

أتعلم يا صديقي الصغير أنك سر من أسرار نجاحي؟!

أتعلم أنك تعيد لي الأمل إن حاول اليأس منعي؟

لأنك صغير جدًا وأنا كذلك معك

دعنا نخوض تجربة جديدة

بابتسامة كما تعودنا

أنت بألوانك وأنا بقلمي

إلى "عمرو" الصغير..

ع: ج

شكر خاص

إلى "التولتمية"، ولكم وحدكم..

أتعلمون أنه فى ليلة عاصفة كليلة قضيتها يومًا فى إنجلترا، أخبرني صديق لي أن النجاح له ثمن، ولكنني وبصدق لم أتوقع أن يدفع النجاح لي، لقد دفع لي ما هو أسمى من كل شيء..

"الصداقة"

معكم أضحك وأتحرر من القيود وأناقش وأتعب وأنهك وأغني وأستمتع وأنعم بالحياة التى تمنيتها يومًا، فأنتم لم تعيدوا الأمل لي، بل لكل من يعرفكم، فانعموا بالحياة كما تحبون، ولتكن الحياة منكم ولكم..

من صديق لكم، فى بلد آخر أرسل لكم كلماتي..

ع.ج

شكر خاص جدًا

لـ

د. أحمد خالد توفيق

لأنني تربيت على كلماته ومع عالمه الخاص جدًا، أرجو أن يتقبل مني هذا الشكر البسيط جدًا على ما قدمه لي ولجيلي بالكامل على مدار سنوات طويلة. فهو الملهم الرئيسي لهذه المجموعة، أتمنى أن يستمتع بها.

د. أحمد

الأب الروحي الجميل

حقًا شكرًا لك.

ع.ج

المقدمة

الحياة دومًا غامضة، ممتلئة بالأسرار، تلك الأسرار التي لا نعلم سرّها هي دومًا الدافع الحقيقي للباحثين والمؤرخين وطالبي الشهرة، ودعونا لا ننسى الفضوليين الذين قد يلقون حتفهم ثمنًا لفضولهم الذى لا ينتهي، والتاريخ خير شاهد على هذه الكلمات.

فى هذه المجموعة أنا لا أقدم سرًا كاملاً، ولكنني أفتح لك الباب لتتعرف على عالم مختلف، فى تفاصيله، وفي شكله العام، لقد راعيت خلال كتابة هذه المجموعة أن أناقش كل قضية بشكل بسيط لا يخلو من التشويق كما تعودتم مني.

سرّنا سيبدأ من خلال كراسة صغيرة، تركها لنا عالم مجنون أو مختلف، احتسبه كما تشاء، مدفون فيها الكثير من الذكريات الشيقة عن حياته الملتهبة مع المجانين والسفاحين والضحايا أيضًا.

د. كمال الشريف سيكون مرشدنا وقائدنا فى هذه الرحلة، ذلك الرجل الذى تعرفت عليه من خلال كراسة لعينة أفقدتني صوابي وشهيتي، قد تحوي الكراسة أسرارًا وقد تحوي خرافات، ولكن فى النهاية غرضنا الوحيد هو الاستمتاع وبعض المعرفة التي بالتأكيد لا أملكها كاملة، ولكنني في النهاية أحاول مثلكم الحصول على جزء منها، فلا أحد يملك المعرفة الكاملة، هناك بعض القصص التى قد تحوي جزءًا تقريريًا بعيدًا عن فن القصة، ولكن سأترك لك إدراك السبب بعد أن تترك كل قصة، فكل جزء تقريري سيضيف لك شيئًا إن لم تكن تعرفه..

دعونا نرى ما هو العالم الذى يُخفيه عنا د. كمال الشريف!

ع.ج

الكراسة

The Box

ليس هناك شيء يستحق القراءة، ولا أعلم لم ترك لي د. كمال هذه الكراسة المتربة، وماذا يريدني أن أجد بها.. وثيقة من عهد الفرنسيين عندما غزوا مصر.. وثيقة تخبرك بسر تحنيط الفراعنة.. شعار الماسونية الحقيقي المحجوب عن البشر جميعًا منذ ولادته.. مجرد وصفة طبية.. لغز يحتاج إلى حل.. أو ربما قد أجد سر الخلود..

ما أعلمه جيدًا أنني مكثت أمام الكراسة الخشبية العتيقة طويلاً وأنا لا أعلم من أين أبدأ، وبماذا أبدأ!

د. كمال جاري الغامض منذ سنوات طويلة يصارع الموت في هذه اللحظات في إحدى المستشفيات، طبيب نفسي بجانب أنه عالم في علم الجريمة المثير، لا أعلم عنه سوى القليل جدًا، أو ربما لا أعلم عنه شيئًا إذا قورنت بهؤلاء الذين ينتظرون إرثه.. لا أعلم هل يملك د. كمال شيئًا بجانب تلك الكراسة؟!

كانت إرشاداته واضحة جدًا، بإتقان عالم وبعقل مفكر، ولا أعلم لم شعرت بالحيرة أمام الكراسة التي وصفها بكنزه الوحيد.. نعم سيعاني أقاربه كثيرًا من هذا الأمر.. غريب يرث كل شيء.. ولكن ما هو كل شيء؟! نعم كان مصرًا أن أحصل على كل شيء..

أخذت الكراسة واتجهت إلى شقتي التي تقع في الدور الرابع، والمواجهة للشقة التي يملكها د. كمال. كوني أعيش وسط أسرة تتكون من ربة منزل لا تترك مجالاً للصمت حين رؤيتي؛ لذا لذت بالفرار وأنا أتحسس

الأرض بأطراف أصابعي.. إنها نداءات زوجتي التي لا تتوقف.. لماذا عليّ أن أجيب دائمًا؟! سؤال لعين لا ينتهى بإجابة، ولكن في هذه المرة كان جوابي قاطعًا "ليس وقته على الإطلاق يا سعاد".. امنحيني شيئًا من الخصوصية، أو امنحيها لي للأبد ولن أندم..

فتحت الكراسة بهدوء غير مبال كثيرًا، ولكن لا أعلم.. ربما أنه الفضول.. الغريزة البشرية.. دائمًا ما يحمل المجهول تلك الفتنة التي تضاهي فتنة المال والنفوذ، بل والأبناء أيضًا.. خصوصًا وإن تعلق الأمر بطبيب نفسي وعالم جريمة.. جريمة.. كلمة كلما رددتها وقف شعر ساعدي والتمعت عيناي وارتفع ضغط الدم في رأسي..

هذا أول سؤال هرع إلى ذهني الضعيف.. لماذا اختارني د. كمال؟ لماذا أنا بالذات؟! لأنني.. لأنني لا أبالي بثمة شيء.. أو لأنني أبالي.. أبالي جدًا.. أبالي بشدة.. نعم كان د. كمال يدرك ذلك جيدًا، ولكنه أبدًا لم يحاول أن يُعلمني بذلك.. فهو لا يتحدث كثيرًا.. بل لا يتحدث على الإطلاق.

أذكر جيدًا حين رأيته في ذلك اليوم متجهًا إلى شقته، حينما كنت أحاول العثور على مفاتيحي في جيبي الوحيد، ونظر لي تلك النظرة الطويلة.. كانت تحمل شيئًا غريبًا.. شيئًا مريبًا، ولكنني لم أعلمه.. ومازلت أفكر..

بعد دقائق من إعادة شريط ذكرياتي، الفارغ تقريبًا سوى من بعض الأحداث القليلة جدًا والتي تجمعني بجاري الغامض؛ قمت بالبحث عن تلك المذكرات التي أخبرني عنها..

ها هي.. رثة.. قديمة.. يغطيها التراب.. يبدو أنه لم يقترب منها منذ مدة.. أو أكثر..

أتمنى أن يكون خطه واضحًا.. فأنا أعاني من تلك العوينات، التي كلما وضعتها شعرت بأنني عالم كهل يجلس خلف تليسكوب فلكي ومع ذلك لا يرى..

أخذت نفسًا عميقًا وجلست في هدوء وأشعلت لفافة تبغ.. الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أنفثه دون أن يحاسبني أحد.. لكم أحسدك يا د. كمال.. عشت وحيدًا في سلام وتموت أيضًا وحيدًا في سلام..

"عزيزي أستاذ مدحت" – إنه أنا..

أعلم تمامًا أنك قد تتعجب بأنني أوجه إليك الشيء الوحيد الذي تبقى مني في هذه الحياة.. ربما تشعر بأن ذلك شيء غريب، ولكنني أعلم كل شيء عنك.. ماذا تُحب وماذا تكره، ومتى تخلد للنوم وما هي مخاوفك.. أعلم تمامًا أنك لا تمارس الحب إلا من باب الواجب الزوجي الديكتاتوري.. لا عليك يا صديقي.. ولا تتعجب ولا تخف.. ولكن لتعلم أنك كنت صديقي الوحيد في هذا العالمَ الموحش.. ولم أرَ من هو أحق منك بهذه المذكرات التي تبلغك بأهم أحداث حياتي..

ربما كنت طبيبًا نفسيًا ولكنني كنت أعاني مشكلة نفسية لم أستطع حلها على الإطلاق.. نعم لم أستطع أن أتحدث إلى صديق أو حتى عدو.. لم أكن سوى طبيبًا لبعض المجانين والمجرمين أيضًا، وباحثًا وراء الجرائم التي تحمل رموزًا مجهولة.. الجرائم الغامضة يا صديقي..

لا ترهق ذهنك أبدًا بالتفاصيل لتعلم كيف علمت عنك كل شيء.. فإنك جاري، ولم يكن صعبًا عليّ أن أتكهن بكل شيء.. وأي شيء..

قد تتساءل لم أريد أن يعلم أحدهم عن حياتي المجهولة الغامضة.. نعم أريد أن أشعر بأنه كان لي صديق في هذا العالم الموحش.. وأنت جدير بذلك يا صديقي العزيز.. نعم جدير بشكل مثالي، رغم انعدامه في عالمنا المضطرب..

أتركك الآن مع مذكرات ستحيا كل صفحة منها حينما تقرأها.. فلا تتركها تموت وحقق لي الأمنية الوحيدة.. حقق لي كوني امتلكت صديقًا"..

صديقك

د. كمال الشريف

أية رسالة هذه التي يتركها لي د. كمال؟! ياله من إنسان غريب ومريب أيضًا.. كيف كان يعلم كل ذلك؟ لايهم! فإنه الآن على فراش الموت، ولا يوجد ما أشعر بالخجل منه.. أعني لن تكون هناك مواجهة سوى مع بعض الذكريات.. ذكريات رجل ميت..

التفكير السحري

Magical Thinking

في ذلك الصباح كنت أنا وزميلي "أحمد ذو الفقار"، دكتور العلوم السياسية في جامعة عين شمس، نجلس سويًا ونحاول وضع تصور معين لما يجري في مصر، ولأني أحب الجلسات العملية.. العملية جدًا.. كنت منغمسًا للغاية في أفكاري الشاردة.. والمتوجسة بعض الشيء.

لم أكد أكمل تصوراتي الأخيرة حتى فاجأني العقيد "بدر السيوفي" مقتحمًا مكتبي.. ونظر لي تلك النظرة الطويلة التي تعني الكثير.. والمثير جدًا.. ولم أكن أحتاج لكمّ كبير من الذكاء لأعلم سر تلك الزيارة المفاجئة من رجل شرطة، وضحت عليه علامات التأمل والازدراء أيضًا.. فأنا أعلم جيدًا أن "السيوفي" لا يؤمن بأطباء علم النفس، ويرى أنهم نصابون ليس أكثر ولا ألومه.. فأنا أعلم جيدًا أنه هو بشخصه وتكوينه يحتاج إلى طبيب نفسي.. وربما هو أيضًا يعرف ذلك.. ربما.

في الطريق كان يحاول بهدوء أن يشرح لي المهمة والتفاصيل، أعلم أنها ليست كل التفاصيل، بل ما سمح له كبرياؤه أن يحكيه.. فياله من شعور بالغصة عندما يشعر ضابط شرطة أنه أمام طريق مسدود في فك لغز جريمة ما، وعليه أن يحتاج لأحد النصابين أمثالي لحل هذا اللغز.. أمر بالتأكيد يدفعك بشدة للغثيان..

وقفت أراجع التفاصيل بهدوء في مكان يعج برجال الأمن ورجال المباحث الجنائية وغيرهم.. نعم كان الهدوء أمرًا صعبًا.. بل كان مستحيلاً..

توقفت للحظات من بعيد أراقب المكان.. شقة صغيرة جدًا مكونة من غرفتين.. السقف قريب.. قريب جدًا، بحيث تشعر بأنه سيسقط ويقضي على الجميع.. نعم، أنت في انتظار كارثة طبيعية ستقيد ضد مقاول العمارة، الذي سيفوز بالبراءة بكل تأكيد دون أن يتعكر صفو ضميره، أستطيع تخيل ما حدث قبل أن يأتي رجال الشرطة ليقوموا بمهمتهم.. أعلم جيدًا أن مهمتهم الوحيدة هي القضاء على كل خيط يقودنا إلى مرتكب الجريمة.. يقودنا إلى الخلاص، وننتهي من كل هذا السخف البشري.. لنذهب إلى منازلنا ونتناول الطعام في هدوء متصورين أن كل ما حدث كان مجرد كابوس.. ولماذا نتصور إذا يمكن أن ننساه كليًا؟!

اقترب مني الضابط في هذه اللحظات، وهو يوجه لي نظرة مفادها أن قد حان دورك أيها المتحذلق المدعي للعلم، ابتسمت ابتسامة واثقة لا تعني شيئًا سوى الثقة والتحدي، فأنا لا أعلم شيئًا عن هذه القضية سوى أن الفتاة وجدوها هكذا منذ ساعتين، كما قال أهل البيت الذي يتكون من أب وأم وثلاثة أبناء، شاب وفتاتين، وجميعهم في مراحل جامعية متفرقة.

اقتربت من الجثة المغطاة بملاءة بيضاء.. كشفتها ونظرت إليها طويلاً.. يبدو أن الإصابة غائرة للغاية، غائرة حد الموت.. آلة حادة لا تقل عن سكين.. ذلك السكين الكبير الذي لا أعلم لم يستخدمونه في المنازل.. فتلك العائلة لا يوجد بينها بالتأكيد جزار.. لا أحد منهم يوحي بذلك..

ومن قال إن القاتل من بين صفوف العائلة؟! ومن قال إنه يمكن إنكار ذلك بشكل قاطع؟! فالقاتل يعلم جيدًا أين يضرب وكيف يضرب.. يعلم جيدًا كيف يقترب بهدوء كاتمًا أنفاسه.. لقد درس الشخصية جيدًا.. إنه يعلم أن تلك المنطقة بقليل من القوة التي تقودها سكين؛ سوف تقطع تيار الحياة عن التدفق.. نعم، لن تئن الضحية.. لن تصدر صوتًا.. سوف تموت في هدوء.. وبالتأكيد لن تعرف قاتلها..

فعند النظر إلى الأب المنهار، والأم التي كلما استفاقت عادت إلى عالم اللاوعي مرة أخرى مغشيًا عليها، والأخت التي تم نقلها على الفور إلى المستشفى لأن حالتها النفسية سيئة للغاية، والاخ المصاب بالذهول في آخر الردهة الواسعة التي نقف بها؛ لا يدل سوى على شيء واحد.. إنها عائلة مسالمة حدث لها حادث سيظل رمزًا تاريخيًا في تاريخهم الخالي من أية قيمة تُذكر..

"لا يوجد أي أثر لأي اقتحام.. لم يدخل أحد.. الجميع كانوا نائمين.. يبدو أنها قُتلت مع الساعات الأولى من الصباح.. فما زالت الجثة دافئة.. الجاني من أهل البيت".

هكذا خرجت الكلمات بصعوبة من بدر السيوفي، الذي كان ينتظر أن ألتفت له، ولكنني لم آبه.. ومن قال يا بدر إنني لا أعلم ما تقول؟! انتظر.. من قال إن الجميع كانوا نائمين؟! إذن كيف تم اكتشاف الجثة؟!

اتجهت إلى الاب المنهار، وبهدوء بدأت أتحدث إليه.. رجل مكتنز واسع العينين.. أصلع.. ذو بشرة بيضاء.. لا يبدو عليه الذكاء كثيرًا.. يبدو أنه موظف.. موظف يطرق أبواب التقاعد.. ياله من مسكين، ولكني لا أهتم كثيرًا بتلك العواطف.. بصراحة مريرة.. أنا لا أؤمن بالمشاعر التي تصاحب جريمة قتل من أي نوع، إلا عندما يتم اكتشاف القاتل.. فإن التماسيح تبكي.. ولكن من قال إن التماسيح لا تملك مشاعر؟!

بعد ثوان من المحادثة تأكد لي شيء واحد، وخصوصًا عندما قال:

"جميع أبنائي محترمون جدًا، والكل يشهد بذلك.. فمن منهم يستطيع أن يتجرأ ويدخل في علاقة تنتهي بجريمة قتل؟! لكنت قتلته بكل تأكيد".

عنت لي جملته شيئًا واحدًا، أن هذا الرجل لا يسمح بالأخطاء، ولكني لم أدخله أبدًا دائرة الشك.. كنت أتصور أنه يملك بعض الذكاء، ناهيك عن ظروفه بفقدان ابنته "دعاء"، التي تبلغ ١٩ ربيعًا.. ولكنني لم أر سوى أب مصري خالص الطباع.

توقفت مع الأم التي كانت تشرب الليمون في هذه اللحظات، وبإيماءة بسيطة جلست بجوارها على الأريكة العتيقة الطراز.. كانت الصدمة مسيطرة عليها إلى أقصى حد.. سألتها بهدوء عن أشياء قليلة عن أبنائها.. وأجابتني شاردة..

"هل حدث مرة وأن شعرتِ حين رؤيتك للوحة طبيب معلقة على أحد المباني؛ بأنك مصابة بالمرض الذي يتخصص فيه هذا الطبيب؟"

كانت مندهشة للغاية من سؤالي، وكأني ذكرت لها أدق تفاصيل ليلتها الأولى في عالم الزوجية البائس، ثم قالت بذهول:

"كيف عرفت ذلك؟! ولكن بعد زواجي بسنوات قليلة لم أعد أعاني هذا الأمر".

ابتسمت في هدوء، ثم قلت لها:

"ألم تشعري يومًا بأنك في حاجة ماسة وملحة للاطمئنان على أطفالك في أسرتهم؛ لكونك تخيلتِ أنك دون قصد آذيتهم في فراشهم حينما قمتِ بوداعهم قبل النوم، ولكنه القلق الخبيث والأفكار الخبيثة التي جعلتك في حرب طوال الليل؟"

- نعم حدث لي ذلك كثيرًا، ولكن أيضًا كانت آخر مرة منذ سنوات.

كان بدر السيوفي في هذه اللحظات يشبه "الأباجورة" التي انكفأت فيما بيني وبين السيدة، ثم أوقفني حين نهضت من مكاني، وقال بهدوء وبشكل سريع:

"ما معنى هذه الأسئلة؟! هل تعني أن تلك السيدة مريضة وقامت بقتل ابنتها دون أن تشعر؟"

- ومن قال هنا إنها مريضة؟! لقد كانت مريضة بالفعل.. ولكنها شُفيت.
- لا أفهمك – قالها وهزّ رأسه ممتعضًا.
- ستفهم كل شيء.. فلقد عرفت القاتل، ولكن دعني أتأكد.
- عرفت القاتل!!
- الأمر لا يحتاج إلى ذكاء..

كنت ألمحه من وقت لآخر.. كان يقف في هدوء.. ورغم مقاومته للقلق الزائد إلا أنه كان يظهر عليه كل شيء.. كنت أراه من داخله.. يئن بلا صوت.. يقاوم بلا سلاح.. يستغيث بلا مجيب.. اقتربت منه وقد أشعلت لفافة تبغ.. تلك العادة السيئة والوحيدة التي أمارسها بدلاً من الرياضة.. فأنا لا أحتاج إلى الالتحاق بنادي الصيد لكي أدخن.. الأمر سهل للغاية.. اقتربت من الابن الوحيد للأسرة المنكوبة.

طبطبت عليه فانكمش على نفسه، ولكنه نفر مني وسرعان ما قال:

"من أنت؟"

- أحد الضباط.
- لقد قتلوا أختي.
- لا تخف.. سنقبض عليهم.

نظرت له طويلاً.. كانت عيناه زائغة ما بيني وبين الجثة الملقاة على الأرض.. المنتظرة.. تنتظر الرحيل والمعرفة.. تنتظر الرحيل للأبد.. تنتظر معرفة ماهية الجاني.. وهل تستطيع الجثث أن تعرف؟ لا أعلم..

ربما..

كان القلق يتطاير من عينيه.. والهلع أيضًا.. فأنا مقدر جدًا لحالته.. فقدان أخت بطريقة الذبح الطبي الشرعي الذي يستخدمونه في المذابح.. من ذبح يعلم جيدًا كيف يذبح.. إنه قطعًا طبيب محترف..

"أنت تدرس الطب؟ أليس كذلك؟"

- بلى، في السنة النهائية – قالها في ارتياب ودهشة.
- وما هو تخصصك؟
- سأتخصص في الجراحة العامة.
- تخصص رائع، ولكنه دموي بعض الشيء.
- طبيعة عملنا.
- أتفهم ذلك بكل تأكيد، كم مرة مارست الجنس معها؟
- ماااااذا تقووووول؟
- أقول لك يا أيمن كم مرة مارست الجنس مع أختك؟
- أنت مجنووووون..
- هل تستطيع أن تفسر لي الجرح على يدك اليمنى؟ فمن استخدم السكين يملك يدًا يمنى قوية، لا تخطىء.. يد طبيب

لا ترتعش.. يد طبيب تعلم جيدًا موضع الذبح، وتعلم أيضًا كيف يقوم بالأمر بدم بارد!

نظر إلى يده في هدوء ولم يجد شيئًا، ثم قال مرتعدًا وهو يبتعد عني بعينين لامعتين وكأنهما عينا مجنون:

"أنا لم أفعل شيئًا بها ولم أمارس الجنس، ولكنه الشيطان".. وانهار تمامًا.

تجمع حوله رجال الشرطة وعلى رأسهم بدر السيوفي، الذي كان يرمقني بتعجب، ثم جاء خلفي وقال:

"ما الأمر؟"

- لا تؤذوه.. فإنه مريض للغاية.
- مارس الجنس مع أخته.. فخاف الأمر فقتلها؟!
- من قال هنا إنه مارس الجنس معها؟!
- أنت من قلت!!
- لقد تصور ذلك في عقله الباطن فقط.. فخاف على نفسه وعليها ودون شعور قتلها..
- لا أفهم!
- هل تسمع عن الوسواس القهري؟

نظر لي تلك النظرة المتبلدة والتي تشير بعدم الفهم، فقلت في هدوء:

" الوسواس القهري هو نوع من أنواع الأمراض النفسية الخطيرة، ويصاب به الإنسان ما قبل السنة السابعة.. وهو مرض وراثي.. يصاب الانسان فيه بالاضطراب ويخلق شيئًا ظريفًا بعض الشيء للمصابين به، ولكن في بعض الحالات هو ليس ظريفًا على الإطلاق كما ترى.. فهناك ما يسمى التفكير السحري Magical Thinking .."

- التفكير السحري؟!
- هو الاستعداد لتصديق ما يخلقه عقل المريض.
- هل تعني أنه خلق ما ذكرته له عن موضوع ممارسة الجنس مع أخته.. فخاف أن ينكشف أمره وأمرها فقام بقتلها؟
- أعتقد ذلك.. كما ترى..
- ياله من غبي.. ولكن كيف اكتشفت الأمر؟
- تقصد ياله من مسكين.. الأمر لم يكن معقدًا للغاية.. أولاً الشقة صغيرة جدًا على هذه الأسرة، وهو ما قد يعرض مرتكب الجريمة لرؤية أخواته أحيانًا عراة أو أشباه عراة، أو في وضع غير لائق لا يتسم بالخصوصية، بجانب أنه في ريعان الشباب، وأنت تعلم جيدًا وساوس الشيطان وجموح الجنس الذي ينتشر كالفيروس في كل ذرة دم، ومن هنا جاء تكوين الفكرة وزرعها في اللاوعي، ومن ثم تصديقها على أنها أمر حدث بكل تأكيد.. كما قلت لك إنه التفكير السحري Magical Thinking.. بالإضافة إلى أن القاتل المسكين في كلية الطب.. والجرح الذي أصيبت به الجثة وأدى لقتلها لا يمكن

أن يكون إلا من صنع طبيب أو جزار، ولا يوجد جزار بالعائلة.. كما أنني تأكدت من خلال الأم.. فإن هذا المرض وراثي، ولكن لحسن الحظ أنها تخلصت منه مع الأيام ومع ضغوط الحياة التي لا تتوقف، يبدو أن الأمر كذلك..

- ولكن لم فكرت في ذلك بالتحديد؟
- الأمر لا يحتاج للتفكير بتحديد وغير تحديد.. إن مثل هذه الأمور يكتشفها عالم وطبيب نفسي مثلي بسهولة، يستطيع أن يتعرف على مرضاه بمجرد النظر في أعينهم، كما أن جريمة قتل كهذه يجب أن تدفعك لأن تفكر في الأمراض النفسية التي قد تنتهي بكارثة، ولا أستطيع أن أستثني منها الوسواس القهري، وبما أنك رجل شرطة؛ فلقد أخبرتني منذ قليل أنه لم يحدث أي نوع من أنواع الاقتحام للشقة، وبالتأكيد الفتاة لم تذبح نفسها..

انطلقت في طريقي أفكر بطريقة سحرية عن الأمور التي يجب أن أقوم بها في يومي الذي سينتهي بكل تأكيد بشيء من الملل.. لا تسيء الظن بي.. فإن طريقتي السحرية لا تؤدي للقتل.

أوهام كابغرا

Capgra's Delusions

قرأت الصفحات الأولى من مذكرات د. كمال، تلك الصفحات التي شعرت معها بالانبهار والحزن أيضًا.. الانبهار من أسلوب حياته الشيق وتلك الأحداث الغريبة التي لقاها على طول مشواره.. ولكن شعرت بتلك الغصة التي تلفعت بالحزن لحاله، لم يكن د. كمال ذلك الرجل الغامض بقدر ما كان بائسًا وحيدًا، يجلس لياليٍ طوال في الظلام يبحث عن مؤنس، عن صديق أو ربما جار يتحدث إليه، ولكن انتهى به الحال ببضع أوراق وقلم ليسطر لرجل ظلّ يراقبه من خلف النوافذ المغلقة؛ ليجعل منه صديقًا فيما بعد الموت.

لا أشعر بالدهشة ولا يعتريني أي نوع من التعجب من ذلك، فلقد عاش وسط مجانين، ولكن ألم يكن د. كمال مجنونًا، إن فكرت طويلاً في الأمر؟ هل كان يحب مرضاه؟ أم كان هو الآخر مريضًا كما اعترف في بعض الأحيان، حتى لو كان اعترافًا بطريقة غير مباشرة؟

لا أعلم هل كان د. كمال يبحث عن صديق أم كان يبحث عن طبيب! ربما كبرياؤه العلمي وذكاؤه اللامحدود كانا حائلاً في أن يعترف بذلك أمام طبيب عادي، ولذلك قرر أن يعترف بكل ذلك بلا مماطلة. بلا خوف أو حرج، أمام رجل لا يعرف عنه سوى القليل.. القليل جدًا.

أنا مدحت، رجل عادي وموظف ممن يجلسون كسالى، يعترضون على كل شيء وأي شيء بلا مبرر، لكي يشعروا بشيء من الاهتمام.. أعلم ذلك جيدًا، ولكنني لست بكل ذلك الغباء، ربما لو كنت أخذت

فرصتك يا د. كمال في عالم العلم لما كانت تلك حالي.. هل يسمعني أحد؟!

أخاف أن تسمعني زوجتي سعاد، التي لا تنفك عن مضايقتي والنيل من لحظاتي الودودة مع صمتي، الذي لم ألتقِ به منذ أن تزوجت.. والآن ماذا بعد يا د. كمال؟

اليوم: ١٥ – ٧ – ١٩٧٦

يوم غريب لا يتخلله شيء سوى الحرارة الغافية على وجوه المارين، غافية حد الموت.. ولكن كان شبابي لا بأس به وأنا أتجه نحو مطار القاهرة، لأستقل الطائرة المتجهة إلى لندن.. كانت الرحلة ممتعة، ممتعة للغاية إن تطرقنا إلى ذلك الرجل الودود الذي كان يجلس بجواري على طول الرحلة، لم يكن ثرثارًا، نعم، كان إنجليزيًا للغاية ولا يتحدث إلا عند الطلب منه، عجبًا لهؤلاء الإنجليز الذين يعرفون جيدًا متى وأين يمكن وضع تشكيل الكلمات المناسبة في المواضيع المناسبة، فهو أبدًا لن يسألك عن دينك أو وجهتك إلا عندما تتيح له أنت المجال لذلك.. ولا أتوقع أن يحدث هذا في بلادنا.. نعم، لن يحدث، وربما ذلك سر حبي للسفر الدائم، ولم يكن ذلك فقط يا صديقي.. بل لأن أكثر القضايا غموضًا التي التقيتها كانت في إنجلترا، الإمبراطورية الكبيرة عظيمة الشأن..

في مطار هيثرو، ذلك المطار المزدحم بشكل يبعث على الغثيان، ولا تتعجب إن قلت لك إنه من أكبر مطارات العالم على الإطلاق.. وقفت أنظر في عيون المنتظرين من بعيد، وأنا أدفع العربة الصغيرة التي تحمل حقيبتي الوحيدة.. عليك أن تتقن الدفع وإلا وقعت كارثة.. وهناك ينتظرني بعيون متوهجة، إنه صديق العلم.. واقرأها جيدًا مرة أخرى.. صديق العلم.. كان في انتظاري، ولا يخلو وجهه من ذلك الترقب اللعين، ورغم ذلك كان يحمل ذلك الأمل الغامض الذي لا تراه إلا في عيون العلماء، والعلماء فقط..

إنه الدكتور "مايك ماير". ذلك الرجل الطويل القامة صاحب العينين الزرقاوين.. والنظرة الشاردة في معظم الأوقات، والتي تغطيهما عوينات سوداء لا تفارق وجهه على الإطلاق، سواء أكنا في النهار أو في الليل، رغم أنه نادرًا ما ترى الشمس في مدينة الضباب.

لا أعرف كيف نسيت أن أذكر لك بأنني درست أربع سنوات كاملة هناك لأحصل على الدكتوراه.. ولكن لا بأس، أنت تعرف الآن..

بعد المصافحة وتبادل بعض الذكريات عبر الطريق الطويل إلى منزله العتيق والكبير جدًا.. دلفت إلى منزله، كان منزله كبيرًا بالشكل الذي لا يمكن إنهاؤه في يوم بأكمله.. لا تتعجب.. أنا أرى الأمر هكذا. فأنت لن تحاول أبدًا النبش أو إظهار موهبة الفضول في منزل إنجليزي الطابع، لا تعرف عنه شيئًا سوى أنه ملك لزميل لك.. هذا غير لائق بالتأكيد..

دخلت غرفتي التي كانت مريحة بشكل يجعلك تشعر وكأنك في الجنة.. كانت تُطلّ على حديقة كبيرة تزينها العديد من الورود النادرة والجميلة جدًا.. منظر كهذا قد يشفي أي مريض من مرض نفسي.. لا أعلم لم فكرت في هذه اللحظات في تحويل هذا المنزل إلى مصحة نفسية، ولكن مَن مِن أهل البيت يجرؤ على تحويل هذه القلعة إلى شيء كذلك؟! إنه تاريخهم الطويل الذي يحمل أجيالاً وأجيالاً من هذه العائلة الأرستقراطية..

لقد كان زميلي هذا طبيبًا بشريًا، وكان متخصصًا في علم المخ والأعصاب، وهو من أعقد العلوم الطبية على الإطلاق، ولقد ساعدني كثيرًا عندما كنت متواجدًا بإنجلترا، ولكم كنت سعيدًا بصحبته في أوقات كثيرة، ولكن لأكن أكثر دقة.. كنت سعيدًا أكثر بجولاته التي كان يشاركني فيها بين المستشفيات الصحية، التي تحوي العديد والعديد من المرضى النفسيين الخطرين، والذين تم إقصاؤهم بعيدًا، سواء بأمر محكمة أو بأمر ذويهم، وعليك أن تدرك جيدًا أن العائلات الإنجليزية تستطيع أن تأخذ القرار السليم بسرعة وحنكة، دون أدنى تدخل من مشاعرهم.. فإن الواجب لديهم فوق أي شيء وكل شيء.. نعم، هم على عكسنا تمامًا.

في المساء بينما كنت أتناول العشاء معه ومع أسرته، التي تتكون من زوجته "أماندا"، وولديه "إدوارد وتوم"، وابنته الأصغر "لويزا"؛ كان يحدثني عن آخر مشاريعه في فتح مستشفى خاص قريبًا، بمساعدة

بعض أصدقائه الأطباء، ولقد كان متشوقًا للغاية ليسمع عن مصر وشمسها وجمالها الساحر الذي لن ينساه.. نعم، فلقد زارها مرارًا في رحلات مختلفة، كانت تتضمن العمل أحيانًا والسياحة أحيانًا أخرى، وكان ابنه إدوارد البالغ من العمر ١٨ عامًا، والذي يكبر توم بسنتين؛ يعرفني جيدًا، وكنت أنا بالمثل أعرفه جيدًا جدًا.

ولكن الغريب يا صديقي أنني لم أجد إدوارد مرحًا كما تركته آخر مرة، فلقد كان ملتزمًا للصمت بشكل مريب، ينقل بصره ما بين الجالسين في خفة وخوف كالسارق من وقت لآخر.. ولكن لم يقلقني ذلك الأمر كثيرًا.. إن ما أقلقني أنه في كثير من الأوقات كان يتطلع في وجه والده بنظرة غريبة جدًا.. نظرة لا تنم إلا عن.. لا أستطيع قولها.. ولكن عليك أن تعرف..

عن الكره والخوف معًا يا صديقي.

وحينما جاءت الخادمة لتصب مزيدًا من الحساء لإدوارد، وقع منها البعض دون قصد، فانفعل إدوارد وتجهم وجهه، وما كان منه إلا أن صرخ في وجهها صرخة لا تستحق فعلتها، فما كان من والده إلا أن قام بشكل جنوني ونهره بشدة، ووبخه كثيرًا بشكل مبالغ فيه.. فنظر له إدوارد بوجه محتدم غاضب، فحاول توم تهدئته، ولكن سرعان ما غادر إدوارد غاضبًا بشدة نحو الطابق الثاني، وهو يتمتم ببعض الكلمات الإنجليزية التي تعبر عن غضبه، وحينها أمر صديقي ابنه الآخر بالجلوس وتناول باقي طعامه: انصاع الابن وهو منكس الرأس، يحبس

الدموع بطريقة تبعث الحزن في النفس بشكل عميق، ومن ثم قام "مايك" بالاعتذار لي عما حدث، وما زال الغضب مسيطرًا عليه، ولكنه كأي إنجليزي أرستقراطي؛ يستطيع أن يتحكم في غضبه بشكل مثير يبعث التساؤل. واتجهت بناظريّ إلى "أماندا"، فوجدتها جالسة دون حراك تمط شفتيها مطأطأة الرأس، تهز رأسها بهدوء جدًا، مستنكرة ما يحدث.. كانت تهز رأسها بشكل لا يستطيع أحد ملاحظته إلا من يدقق النظر.. بدقه جدًا.

بعد العشاء جلسنا أنا ومايك نحتسي بعض الشاي في غرفة مكتبه الكبيرة، والتي تحوي المئات من الكتب إن جاز التعبير، مكتبة ضخمة وبها العديد من الكتب النادرة في مختلف العلوم والفنون والآداب، لقد كان يعشق القراءة.. بل كان مدمنًا..

حدثني عن العديد من الأبحاث التي يعمل عليها، والتي ستُحدث طفرة في طب المخ والأعصاب، وعن اشتياقه وحماسه الكبير لإنشاء تلك المستشفى التي حدثني عنها سابقًا، ولكنني وبكل صدق لم أكن منتبهًا.. لم أكن منتبهًا على الإطلاق.. لم أكن أفكر سوى في إدوارد.. إدوارد فقط.

"اعذرني يا صديقي، لم يكن جائزًا منك أن تعامل إدوارد بهذه الطريقة، فأنت تدرك جيدًا أنه حساس بعض الشيء، وهكذا جميع المراهقين".

هزّ رأسه وهو يقول مستنكرًا:

"ألم تر ما فعل؟ كان يستحق ما ناله من غضب مني.. كما أنه لم يعد مراهقًا".

نظرت له طويلاً. تلك النظرة التي تجعل من أمامك ينفجر بالحقيقة، فقال:

"لا تنظر لي هكذا يا د. كمال، أعلم أنني عصبي بعض الشيء".

فتمعنت النظر فيه أكثر، فقال وهو يهز رأسه بعصبية:

"أدرك، عصبي جدًا، ولكنهم لا يدركون أنني على الطرف الآخر من حياتي المهنية الآن وأحتاج لبعض الهدوء في هذا المنزل، إنني أشعر بالجنون أحيانًا من كثرة التفكير في مستقبلهم وهم لا يأبهون".

- إنهم صغار ولا يعنيهم ما تتحدث عنه، فهم الآن لا يهتمون سوى بشيء واحد وهو كيف يستمتعون، فإن كنت تفسد عليهم تلك اللحظات، فماذا تتوقع؟
- إنني على هذا الحال منذ مدة.
- أنصحك بأن ترى طبيبًا.
- ماذا؟!
- أنت رجل مثقف وطبيب، وتعلم ما أود قوله.
- أنت طبيب!
- بما أنك سمحت لي، أنت تحتاج للراحة بعيدًا عن التفكير، يمكنك أن تأتي لمصر كنوع من التغيير، وأنصحك أن

تصطحبهم معك ليعود الوفاق الأسري الذي تعودته في هذه العائلة.

هزّ رأسه وقال:

"سأفكر في الأمر".

كنت أعلم جيدًا أنه يقول ذلك من باب إغلاق الموضوع، فقد نسيت أن أقول لك أن بعض الإنجليز ذوي مراس عنيد.. عنيد جدًا..

اتجهت إلى غرفتي وأنا أنظر إلى الساعة التي كانت تدق العاشرة والنصف ليلاً، وكنت مرهقًا للغاية، وفكرت في الأماكن التي سأقوم بزيارتها.. لقد نسيت أن أخبرك لماذا جئت إلى إنجلترا! جئت في رحلة عمل.. للقاء طبيب نفسي شهير اسمه "بروس مارتن"، ولا أخفي عليك أنني كنت في حاجة ماسة للتغيير من أرق الجو المصري.

بعد ثلاث ساعات من النوم استفقت على صوت صرخة مدوية، إنها صرخة امرأة، بالتأكيد إنها "أماندا".. بحثت عن زر النور في عمود "الأباجورة"، وسرعان ما وضعت عيوناتي واتجهت مسرعًا إلى الخارج لتقصي الأمر.. أعتقد أن الصوت أتى من الطابق السفلي، وبالفعل هرولت إلى هناك لأجد باب مكتب "مايك" مفتوحًا، واستطعت أن أرى في هذه اللحظات "أماندا" التي كانت واقفة كجثة ميتة، حيث تحول لونها إلى الاصفرار، وقد وضحت على وجهها صرخة مكتومة أخرى،

وحينما اقتربت وجدت مايك منبطحًا على ظهره وسكينًا تخترق صدره.. نعم، لقد قُتل مايك..

أستطيع أن أرى ذلك جيدًا، إنه سكين نفذ إلى الصدر.. اخترق كل الأنسجة.. اخترق القفص.. وصل إلى الرئة.. أحدث ثقبًا بها.. قام الهواء المتصاعد منها بعمل الجزء الباقي.. بملء صدره بالهواء.. لا يستطيع التنفس.. الأمر صعب على الاحتمال الآن.... الرئة تمتلىء بالهواء.. النفس الأخير.. الآن يمكن للروح أن تنطلق إلى بارئها في هدوء.. النتيجة جثة.. ذكريات.. مشروع العمر لن يتحقق.. فلقد مات مع موت مايك.. ودعنا لا ننسى أهم النتائج..

القاتل يا صديقي.

كان إدوارد يقف بجانب توم، الذي كان جامدًا كتمثال الثلج، بينما كانت "لويزا" ترتجف، وسرعان ما اتصلت بالشرطة التي أتت على الفور.. ليس كما يحدث عندنا.. تأتي الشرطة بعد أن يقوم الضابط المسؤول بحلق لحيته وتدخين لفافة تبغ ولعن اليوم الذي عمل فيه شرطيًا، ومن ثم يتذكر أن هناك بلاغًا بشأن جريمة قتل.. فيقرر بعد لفافة تبغ أخرى أن يحرك هامته ويقوم بشيء هو في الأساس عمله وواجبه.

عرفت من خلال التحقيق الأوليّ الذي دار سريعًا في المنزل أن "أماندا" شعرت بتأخر زوجها، فاتجهت لتبحث عنه، فوجدته مقتولاً. ومن

المعاينة المبدئية للجثة تكهن الطبيب بأنه قُتل منذ ما يقرب الساعتين، أي بعد نومي بساعة واحدة تقريبًا، وبعد تعريف نفسي للضابط المسؤول، والذي كان اسمه "جيمس"، والذي رحب بي خصيصًا بعد أن عرف طبيعة عملي ودراستي.. فهم يؤمنون جدًا بتخصص علم النفس ودوره الكبير في كشف لغز الجريمة، ليس كما يحدث عندنا.. فإنني أحد النصابين في نظر الشرطة المصرية، رغم مساعداتي المستمرة لهم.. ولكن لا يهم..

استأذنته في عرض بعض الأسئلة على أهل البيت، بعد أن أكدوا له بأن "مايك ماير" المجني عليه ليس له أي اعداء على الإطلاق، ولقد كانوا متماسكين للغاية -- عدا لويزا الصغيرة - في ظل الظروف الحرجة التي نحن بصددها.. جريمة قتل.. لن تُنسى..

اقتربت من "أماندا" وسألتها بعض الأسئلة، ولكن كانت إجاباتها هي نفس الإجابات التي أجابت بها على الضابط المسؤول عن القضية، وعرفت أن "أماندا" لا تحمل أي مفتاح لحل لغز تلك الجريمة، وبالتأكيد لم أستطع التحقيق مع الصغيرة "لويزا"، حيث أخذتها عربة الإسعاف بسرعة بعد أن أصيبت بانهيار عصبي.. نعم، إنها رقيقة للغاية..

وحينما اقتربت من إدوارد، الذي كان ساكنًا وشاردًا أيضًا، سألته:

"هل أنت بخير؟"

أومأ برأسه دون أن يجيب، وسرعان ما قلت له:

"هل كان والدك يعاملك بقسوة في أيامه الأخيرة؟! لقد رأيته بعينيّ".

نظر لي متأملاً، ثم قال بهدوء:

"نعم، لقد كان قاسيًا جدًا في الفترة الأخيرة، ولقد تجرأ في مرة من المرات وصفع توم على وجهه صفعة قوية. لقد كان الأمر لا يُحتمل، لقد كنت متفهمًا جدًا لمدى انشغاله وقلقه في الأيام الأخيرة، ومدى توجسه وخوفه من مشروعه الذي كان يخطط له، ولكن هذا لا يعني أن يكون قاسيًا بهذا الشكل".

وصمت للحظات، ثم قال:

"أؤكد لك أنني لم أقتله إن كنت تفكر بذلك، فربما كنت لا أطيق حتى النظر في وجهه، ولكن هذا لا يعني أن أقتله".

أومأت برأسي مبتسمًا في نفسي، دون أن أعلن ذلك، واتجهت إلى توم الذي كان جاحظ العينين شاردًا بشكل مخيف، كانت الصدمة مسيطرة عليه.. مسيطرة عليه بشكل كبير، وحينما اقتربت منه ونبهته إلى وجودي؛ نظر لي ثم قال:

"لقد مات نهائيًا".

قلت له بهدوء وريبة:

"من الذي مات نهائيًا؟"

- ذلك الرجل.
- أتقصد أباك؟
- إنه ليس أبي.

هدأت للحظات، ثم قلت بعد تفكير:

"قد يكون أخطأ في حقكم بعض الشيء، ولكن هذا لا يعني بأن تصفه بذلك الرجل.. إنه أبوك".

- لا، ليس أبي، فهو يستحق ما حدث له.

كان الضابط المسؤول السيد "جيمس" متابعًا لي وللتحقيق الذي أجريه، ويكتب كل شيء في مفكرة صغيرة بعناية تامة.. يكتب كل تفصيلة.. لا يفوت شيئًا ولا يهمل شيئًا.

نظرت إلى توم وأنا أتأمله، ثم قلت له:

"لماذا قتلت ذلك الرجل يا توم؟"

نظر لي بريبة، ولكنها نظرة لا تخلو من الشرود، ثم قال:

"الكل يحصل على ما يستحق".

- أتعني أنك تخلصت من ذلك الرجل لأنه يستحق؟!

بعد هدوء ثقيل أومأ برأسه بهدوء دون أن يتفوه بشيء، ولقد كان وجهه غريبًا شاردًا مصفرًا. وكأنه غائب عن الوعي بنظراته الشاردة والثابتة والثاقبة أيضًا.

فنظر لي السيد "جيمس" متعجبًا. فأومأت برأسي له لكي نترك الصبي يحادثني على انفراد. فقال متلهفًا:

"لقد قتله، ولكن لا أفهم.. ماذا يعني بهذا الرجل؟"

- إنه يحتاج للعلاج.
- ماذا تعني؟
- إن كنت تبحث عن فك رموز تلك القضية، فإن الأمر بسيط جدًا، إن توم مريض.. مريض جدًا.. مرض نادر لا يحدث كثيرًا في هذا العالم إن سألتني عن رأيي.
- كلي آذان مصغية.
- هل تسمع عن مرض اسمه التلبس؟
- التلبس؟!
- نعم إنها حالة يتوهم فيها المريض أن أحد أفراد عائلته - الزوج أو الأب أو الابن - تم استبداله (أو تلبسه) من قبل شخص آخر يشبهه. وهي حالة توهم مركبة تسمى "أوهام كابغرا" - Capgra's Delusion - وهي حالة وهمية، وسميت باسم مكتشفها، الطبيب النفسي الفرنسي الشهير جان ماري جوزيف كابغرا، وفي هذه الحالة يُقنع المريض نفسه بأن التغير الذي أصاب

هذا القريب (وجعله أكثر قسوة مثلاً) يعود إلى استبدال شخص محتال يملك ملامح مماثلة به.. أي التلبس.

- هل أنت متأكد؟! فأنت المتخصص هنا.
- بكل تأكيد.. لقد كنت أعتقد أن إدوارد هو الفاعل في البداية، كنوع من الانتقام، ولكن حين سألته قال "لقد كنت متفهمًا"، ومن دخل قالب الفهم.. هو مدرك لتصرفاته ويعي جيدًا ما يفعل، وحين اقتربت من توم قال جملة غريبة أثارتني "لقد مات نهائيًا"، وكأنه يقصد شيئًا معينًا يدور في عقله.. عقله وحده.. إن الأمر يشبه الإيحاء، ومن ثم تصديق ذلك الإيحاء، حيث يتم وضعه في الوعي كاعتقاد لا خلاف عليه.
- استمر لو سمحت.
- هذا يعني أن العقل يؤكد ما بناه، وهو القتل الذي تم زرعه في منطقة الوعي، ومن ثم تم تأكيد ذلك من خلال الفعل، وأنا أقصد هنا القتل.

أشعلت لفافة تبغ، ثم قلت بهدوء:

- ووصف أباه بالرجل وهو يبتسم، إنه حتى الآن متأكد تمامًا أن من قتله هو الرجل الذي لبس ملامح والده وعامله بقسوة..

هزّ السيد "جيمس" رأسه متفهمًا ثم شكرني.

بعد أن حضرت الجنازة الرسمية لزميلي الراحل "مايك ماير"، وبعد أن تأكدت من أن "توم" سيلقى العلاج بالشكل المرجو في إحدى المصحات النفسية؛ اطمأن قلبي ومن ثم اتجهت إلى الطبيب الذي جئت من أجل زيارته.

دكتور "بروس مارتن".

وقفت أمامه وأنا أنظر إليه جيدًا بتأمل وحذر.. أنظر إليه بدقة.. فأنا لا أضمن.. لا أضمن على الإطلاق أن تكون بيده سكين، ويتخيل أنني الرجل الذي سلبه زوجته متخفيًا في ملامح طبيب مصري.. نعم، قد يكون الدكتور الشهير مصابًا بالتلبس..

ذات الرداء الأسود

The lady in black

قد تأتي الجرائم في آخر مكان قد نفكر به، ومن آخر شخص قد يخطر في مخيلتنا. إن الجريمة شيء قابع في الظلام كوحش ساكن ينتظر أوامر سيده، قد تختلف معي يا صديقي إن قلت لك إن الجريمة هي الشيء الوحيد الذي يداوي هؤلاء الهاربين من عقولهم التي كادت أن تقسمهم إلى نصفين، فأنت لا تتخيل على الإطلاق مدى سوء الهواجس التي تلعب بعقل المجرم في كل لحظة.. إنها لا تشبه الكوكايين في جبروته عندما يشعر الجسد بالحنين إليه حين ندرته، ولا تشبه الحب في شيء حينما نتوق إليه ونحب أول من يقابلنا في طريقنا.. أؤكد لك أن الامر أخطر وأعمق بكثير..

في أحد أيام الآحاد، وأتذكر جيدًا أنه كان يومًا ممطرًا.. ممطرًا بشكل مخيف.. ممطرًا بشكل قد يدفعك لتوقع العديد من الكوارث، أو ربما قد يدفعك لتظن بأنها نهاية البشرية، ولكن لم يكن الأمر كذلك.. نعم لم يكن اليوم الأخير..

وقفت أنظر للسماء من خلف شرفتي الشفافة، والتي تملك زجاجًا كاتمًا للصوت.. لا أعلم لم سمعت صوت فحيح أفعى.. ربما إنها مخيلتي المكتظة بالمجانين والسفاحين.. فأي شيء آخر يمكن أن يتخيله شخص مثلي؟! فأنا لا أتوقع أن أتخيل صورة لامرأة في رداء أحمر طويل، بشعر ذهبي وعينين زرقاوين.. دعك من هذه السخافات.. فأنا بطبعي لا أحب النساء.. أو لتحسبها هكذا..

دخل عليّ أحد أصدقاء المهنة حينما أشعلت لفافة تبغ.. نظرت له طويلاً.. ولم يهمني كثيرًا ما أتى من أجله.. فأنا أعرف ما جاء لأجله جيدًا.. فهل هناك شيء آخر أعيش لأجله ولا أعلمه؟ بالطبع لا.. فأنا أعرف نفسي جيدًا..

دخلنا سويًا إلى شقة المجني عليه.. شاب ثلاثيني العمر، زهرة في ريعان شبابها، تقاسيم وجهه السمراء توحي بجمال خاص، وجاذبية خاصة أيضًا.. فليس كل من يملكون الجمال يملكون الجاذبية، لم يشوه ذلك الجمال سوى رصاصة يبدو أنها اخترقت القلب في سرعة وهدوء أيضًا، لم يأخذ الأمر طويلاً.. لقد فارق الحياة بسرعة الضوء.. ربما أسرع.. إنه محظوظ بكل تأكيد..

نظرت طويلاً إلى زميل المهنة، ثم درت بعينيَ في أنحاء الشقة بينما كنت أفكر، وسألت زميلي المرافق بعد وهلة تخللها إشعال لفافة تبغ:

"يعيش وحده، اليس كذلك؟"

- نعم، يعيش وحده، ولا يوجد أي شاهد سوى جارته التي تسكن في الشقة المجاورة له.
- امmم..

أخذت نفسًا عميقًا من لفافة التبغ وأنا أحوم حول الجثة الساقطة على أرض البلكونة، أو الفراندا كما يدعونها أحيانًا، ومن ثم تجولت في الشقة التي تحمل ذوقًا لا بأس به، يبدو أن صاحبنا لديه ذوق عالٍ

حتى في النساء؛ إذا نظرت إلى تلك التماثيل العارية لبعض النساء، والتي تزين شقته، وفجأة جاءني صوت بدر السيوفي.. الرجل الذي شرع يحترمني بعد صداقة خفية نشأت بيننا وطدها عالم الجريمة.. صداقة لا أكترث لها.. صداقة تبدأ بجريمة لا أعتبرها صداقة على الإطلاق..

"لم يسمع احد شيئًا.. يبدو أن القاتل استخدم كاتمًا للصوت.. ولكن الشاهدة سمعت صوت صرخة ثم ارتطام بالأرض، وحينما هرعت لتتقصى الأمر: لمحت فتاة من ظهرها تخرج مسرعة من الشقة وقد تركت الباب مفتوحًا".

- وأين الشاهدة؟
- هاهي هناك.. في حالة نفسية سيئة.. لقد حصلنا على تلك الأقوال منها بصعوبة.. فلقد كانت منهارة للغاية عندما أبلغتنا عن الحادث.. إنها أرملة.. كانت متزوجة من زميل لنا في الشرطة ولكنه توفي منذ عامين، وتعيش وحيدة منذ ذلك الحين في شقتها.

مال رأسي قليلاً وأنا أتابعها من بعيد، كانت شاردة.. جميلة بحق، شعرها الملون الذي ينسدل على وجهها يجعلك تفكر ألف مرة قبل الاقتراب منها.. عيناها الواسعتان الرماديتان تعطياني انطباعًا بأنهما عدستان لاصقتان "لينسس"، ذلك الاختراع اللعين الذي أدخل العديد من المغفلين عش الزوجية.. قوامها لا يقاوم.. يبدو أنها تهتم بنفسها بشكل مبالغ فيه، إذا ما انتبهنا إلى كل كمية المساحيق التي تغلف

وجهها.. لا أعلم لمتى سنظل مكتوفي الأيدي ونحن نرى العالم الاصطناعي يقضي على ما تبقى منا من طبيعية! بل على كل ما تبقى منا من آدمية!

- ماذا كانت ترتدي الفتاة؟ - هكذا سألتها بعد حديث عابر حدث بيننا لم يتخلله سوى التعارف وبعض المجاملات، والدعم لحالتها المزرية أيضًا، وعرفت أن اسمها إنجي.. اسم رقيق أرستقراطي.. أشعرني بأنني لست سوى "علي" ابن الجنايني في فيلم رد قلبي!
- كانت ترتدي فستان سهرة لونه أسود، كما أنها طويلة نوعًا ما ولها شعر طويل أسود كاحل، وكانت تهرول مسرعة ولم تأخذ المصعد، بل اتجهت نحو السلم.. فكما بدا لي فإنها لم تكن على استعداد لأي نوع من الانتظار حتى لا ينكشف أمرها.
- أشكرك يا مدام إنجي..

اتجهت إلى بدر السيوفي ثم قلت له:

"خلال يومين ستقوم بالقبض على جميع من يتردد على هذه الشقة، وتقوم باستجوابهم بكل تأكيد، وحينما تحصل على الفتاة التي تنطبق عليها تلك المواصفات ممن يترددن على المجني عليه؛ عليك أن تطلعني لكي أقوم بسؤالهم بعض الاسئلة".. أومأ برأسه موافقًا.

اتجهت إلى البلكونة ودققت النظر في الضحية، ثم أغلقت الباب عليَّ لأبقى أنا والضحية وحدنا أتأمله. محاولاً بقدر الإمكان أن أتخيل ما حدث.. سهرة حمراء انتهت بدماء حمراء جدًا.. هكذا تنتهي الليالي الشيطانية.. بضحكة شيطانية يغادر على إثرها الشيطان بحثًا عن ضحية أخرى.. وحين خروجي تعرقلت فى إصيص الزرع الذى يزين الشقة فوقع بقوة على الأرض بعيدا عن الجثة. ثم نظرت إلى جميع من في الشقة من خلال الزجاج، ولكني لم أجد أية ردة فعل.. ثم فتحت الباب فانتبه السيوفي إليّ، ثم جاء مسرعًا وقال:

"هل أنت مجنون.. ماذا فعلت؟".

"لا شيء، ولكن وقع الإصيص دون قصد مني.. لا عليك، فإن مساعديك قاموا بواجبهم وأنهوا على كل طرف يقودنا إلى القاتل.. فإصيص زرع لن يزيد الطين بلة".

نظر ممتعضًا، ولكنني لم أكترث كثيرًا له.. واتجهت في طريقي دون أية كلمات وداع.. فأنا بطبعي لا أحب كلمات الوداع التي يسبقها اكتشاف جثة.. هذا أمر ينذر بالحظ السيء.. لا تتعجب.. فأنا رجل متعلم ومثقف ولكن لا بأس ببعض الخرافات..

بعد يومين وفي قسم الشرطة وقفت بهدوء أمام المتهمتين اللتين تنطبق عليهما الأوصاف التي ذكرتها الشاهدة، كما كانت الشاهدة "مدام إنجي" تجلس في مواجهتهما.. عرفت أيضًا أن المجني عليه كان زير نساء

بشكل يبعث على الغثيان.. فما ذكره لي بدر السيوفي عنه يصلح سيناريو للجزء الثاني من الفيلم الشهير "كازانوفا".. لماذا لست متعجبًا من نهايته بهذه الطريقة؟ ربما أنا متعجب للغاية لأنه لم ينتهي نهاية أسوأ.. لا يهم فالنتيجة واحدة.. فقد تم إرساله للجحيم على يد إحداهن..

لم يكن هناك أي دليل ينفي ارتكاب إحداهما للجريمة.. أقوالهما متضاربة، ولا شيء يثبت بالتحديد أين كانتا وقت وقوع الحادث، ولا شهود إثبات تبرىء ذمتهما.. لم يكن هناك سوى بعض أنواع القسم المستمرة والمستميتة والمغلفة بالدموع بأنهما لم تقدما على تلك الجريمة البشعة.. بدر السيوفي متحير، وخصوصًا عندما قالت مدام إنجي أنها لا تستطيع أن تجزم بشكل قاطع أيهما القاتلة.. فالاثنتان لهما نفس المواصفات.

كنت مبتسمًا ابتسامة عريضة بيني وبين نفسي، ولم يلمحني سوى بدر السيوفي الذي كان متحيرًا جدًا ومغتاظًا جدًا من تلك الابتسامة، ورغم ما دار في عينيه من أسئلة إلا أنني لم أعره انتباهًا متعمدًا، حتى ينتهي من جميع أسئلته، وحينما شعرت بأن وقتي يضيع بلا فائدة سألت المتهمة الأولى قائلاً:

"هل كنتِ تحبين المجني عليه؟"

فقالت منهارة:

"كانت قصة عابرة، وحينما علمت بخيانته لي تركته في الحال.. فهو عاشق للجسد، ولم أتمنَ أن تكون نهايتي على تلك الشاكلة".

نظر لي بدر السيوفي نظرته البغيضة، وهزّ رأسه متهكمًا على تلك الأسئلة الصبيانية في حد تصوره، بينما قلت للمتهمة الأخرى:

"هل آذاك المجني عليه من قبل؟"

فقالت وهي تحاول أن تمسك دموعها:

"رغم خياناته المستمرة لي إلا أنه أبدًا لم يعاملني إلا بكل لطف، وحاولت كثيرًا أن أصلح منه لأستبقيه لي وحدي، ولكن أنت تعلم أن مثل هؤلاء لا يمكن أن ينصلح لهم حال".

أومأت برأسي، ثم قلت موجهًا حديثي بشكل عام وأنا أنقل بصري بين الجميع، حيث كنت أشير بيدي بخيلاء وتحدٍ:

"الآن يمكنكم جميعًا أن تعرفوا القاتل.. فلقد تأكدت من ماهية القاتل، وهو الآن في هذه الغرفة بيننا".

تنبه لي الجميع، وشعرت بأن الفزع ترك العالم كله وانتقل إلى عيونهم، وما أدهشني حينها رؤيتي لبدر السيوفي وهو يبلع ريقه، فقلت في نفسي "أيها البليد.. لم تخف؟" ولكن أيقنت بأنه تعجب حين قلت ذلك، وحينما شعرت بانتباه الجميع لي قلت:

"إن القاتل يعرف المجني عليه جيدًا.. جيدًا جدًا.. يعرف أيضًا كيف يستخدم السلاح.. يعلم جيدًا أن المجني عليه وحده في المنزل.. أن القاتل يعاني من الوحدة القاتلة.. ولكم أن تتخيلوا أيها السادة.. زير نساء.. تعشقه النساء.. إنسان بلا ضمير.. تحبه إحداهن بجنون.. تعرف جيدًا بأنه يخونها.. تتحمل مرة واثنتين.. يحاول بطريقته اللعينة أن يجذبها إلى صفه لكي تشفيه من مرض النساء اللعين، ولكن هل يُشفى مريض النساء؟! من خبرتي الكبيرة.. أجزم بأنه أمر مستحيل.. مستحيل للأبد.. تنشأ الغيرة وتثور بداخلها.. تتربص به.. لقد دخلت الشقة.. تعلم جيدًا كل مكان فيها.. تعلم جيدًا أن زجاج البلكون كاتم للصوت.. كاتم للصوت بشكل كبير.. بشكل يستحيل معه أن يُسمع أي شيء".

ثم تنهدت وأنا أنظر فيما بينهم، حيث ملأهم الحماس والترقب، والتوسل أيضًا لمعرفة الحكاية كاملة:

"لقد قالت مدام إنجي إنها سمعت صوت صرخة ومن ثم دويّ، وقالت إنه صوت ارتطام شيء بالأرض، وكل ذلك من شقتها.. قالت أيضًا إنها لم تر وجه القاتل، ولكنها بالتأكيد تعلم جيدًا جميع المترددات على الشقة من نساء.. تعلم طولهن.. طريقتهن في الملبس.. لون شعرهن.. هذا ليس صعبًا على امرأة أصيبت بالغيرة القاتلة.. تراقب بحكم غيرتها كل شيء عن كثب".

فالتمعت عيون جميع الموجودين، بينما حاولت مدام إنجي أن تتكلم، فقاطعها بدر السيوفي قائلاً، وكأنه تحت تأثير المنوم المغناطيسي:

"لو سمحتِ، اخرسي تمامًا".

بينما استرسلت في حديثي مبتسمًا:

"زوجة ضابط.. بالتأكيد عاشت الكثير والكثير من الجرائم.. تستطيع أن تمسك بالسلاح بحكم أنه كان في حوزتها دائمًا.. مسدس.. إنه سلاح أنثوي إن سألتموني عن رأيي.. ضغطة بسيطة على الزناد.. يسقط على إثرها المجني عليه ميتًا.. وينتهي كل شيء.. ومن ثم تأتي القصة الملفقة لما حدث، تترك الباب مفتوحًا.. تتصل بالشرطة وتدّعي الانهيار.. فهل هناك من يستطيع أن يُمثل ويدّعي كما تفعل النساء.. لا أظن".

انهارت مدام إنجي وهى تصرخ في وجهي:

"أنت لا تعلم معنى أن تعيش وحيدًا، وعندما تجد من يعطي لك الأمل.. تجده زائفًا.. خائنًا.. نعم لقد قتلته".

حينما انتهى كل شيء؛ سألني بدر السيوفى سؤاله المعتاد:

"يا زميلي، لم يكن الأمر يحتاج لكل هذا الذكاء.. لقد كنت أعلم أنها القاتلة من البداية، ولكنني كنت في حاجة لكي أتأكد.. فإن حياة البعض على المحك.. فعندما قمت بتكسير إصيص الزرع بقوة.. لم يكن أكثر من اختبار لزجاج باب البلكونة، ولقد أصاب ظني هدفه.. فإنه كاتم للصوت.. كما أن أقوالها بوجود فتاة لم تر ملامحها أمر لا يقبله عقل.. فإن نوعية القتلة التي تقتل وتفر في الحال.. هم المحترفون

فقط.. فهم يعلمون أن سرعة الهرب أهم من كل شيء.. وليس كما يدّعي بعض الجهلة بأن الذي يقتل لأول مرة يفر سريعًا.. هذا خطأ جسيم في علم الجريمة.. إن من يقتل أول مرة لابد وأن يصاب بالصدمة لبضع دقائق حتى يتنسى له تصديق ما حدث".

وأشعلت لفافة تبغ، ثم استرسلت في حديثي قائلاً:

"ولنأتي للفتاتين.. الأولى قالت إنها أحبته ولكنها تركته لخيانته.. ومن يحب لا يترك من يحبه ويناضل معه حتى النفس الاخير أملاً في التغيير.. وهذا ما أكد لي بأنه لا يعني لها الكثير.. لا يعني أكثر من تجربة فاشلة.. هكذا الحكاية دائمًا، ومن هنا أيقنت بأنه لا يوجد لديها أي دافع للقتل.. أما الثانية فقالت إنها حاولت معه ولم تر في معاملته إلا كل اللطف، وكلمة حاولت تعني الإيجابية رغم سوء من تتعامل معه.. ومن يملك شخصية كذلك لا يمكن أن يقتل، لأنه بالتأكيد سيبحث في مكان آخر.. لأنه دومًا وأبدًا مفعم بالحياة وليس بالموت، وهذا ما أكد لي أن مدام إنجي، التي تعيش وحيدة بين أربعة جدران.. جميلة.. بل فائقة الجمال، لابد وأن يتكون لديها ذلك المرض اللعين.. الغيرة القاتلة، وهو مرض معروف.. والغيرة المرضية عادة تصاحبها درجة عالية من الخطورة، علاوة على الشك في إخلاص الشريك وشرفه، وقد يصاحبها أوهام أخرى مثل الشك في نوايا الشريك في التخطيط لقتله أو تسميمه أو إصابته بمرض جنسي أو عجز.

رغم إنها نوع من أنواع الاضطرابات الضلالية، فيمكن أن تكون ضمن أعراض بعض الاضطرابات، مثل الفصام العقلي أو اضطرابات الشخصية أو الاضطرابات الوجدانية أو تعاطي المخدرات أو بعض الأمراض العقلية العضوية، وما أراه أمامي هو اضطراب وجداني لأرملة تعاني الوحدة وتحتاج لمؤنس.. ولكنه لم يكن المؤنس المطلوب.. وانتهى الحال كما ترى".

انطلقت في طريقي هذه المرة وأنا أشعر بأن الحياة في هذا اليوم انتهت عند هذه النقطة، كان المطر مستعدًا للهطول، حيث كان لون السماء قاتمًا.. قاتمًا للغاية.. ولكنني لم أهرب هذه المرة لأشاهده من خلف النوافذ.. فبت أكره أي شيء يذكرني بالزجاج.. الزجاج الذي يخفي خلفه قتيلاً..

القاتل المجنون

Mad Murder

التاريخ: شهر ديسمبر ١٩٥٧

شهر لن أنساه، شهر غريب بتفاصيله الموحشة.. لا تتعجب يا صديقي.. فأنا بالطبع أحب الشتاء.. أحبه جدًا، ولكن شهر ديسمبر عام ١٩٥٧ أبدًا لن أنساه، لأنه يحمل شيئًا آخر.. شيئًا آخر تمامًا، يختلف عن أي شتاء مضى وجاء في حياتي بعد هذا الشتاء.

في هذا الشهر بلغت الخامسة والعشرين من عمري، وكان الأمر متأزمًا للغاية. قد تسأل كثيرًا لم كان الأمر إلى هذا الحد؟! فلقد تعرضت إلى القتل من قبل مجرم كنت أبحث عنه منذ مدة.. مجرم لا يعرف الشفقة. ولسوء حظي أنها كانت القضية الأولى في حياتي.

رجل يقتل أولاده الأربعة وزوجته وأخاه وزوجة أخيه ببرود تام، ثم يحرق المنزل ويرحل، لقد وصفته بالرجل وآسف على هذا التعبير، بل الأجدر بأن أصفه بالوحش، ومن قال إن الوحوش سيئة لهذا الحد؟! دعنا لا نظلمها.

جلست في إحدى الغرف بعدما استطاعت الشرطة إلقاء القبض عليه بمساعدتي بالطبع، فقد استطعت أن أعلم ما يخفيه عقله، أنسج الخيوط التي يستخدمها ثم أقطعها في اللحظة المناسبة. بنيت له عش عنكبوت وأوقعته فيه، ليتضح أنه لم يكن عشًا بل كان فخًا، وقفت حاجزًا له أمام أحلامه بالهرب خارج البلاد، وأي بلاد ستتحمل مجنون كهذا؟! ولكنني لم أكن أعلم أنه هو الآخر يقرأ أفكاري، ولكن الفارق

كان دائمًا في التوقيت، السرعة التي لم أحصل عليها بعد بالشكل الكافي لنتعامل مع مثل هؤلاء، وقد سبقني بسرعة البرق حينما علم من أكون وحاول قتلي، ولكنها إرادة الله التي حالت دون ذلك.

لا أخفي عليك أن ذلك الامر أصابني في مقتل، أصابني بالهلع، بت أغلق جميع منافذ شقتي، عمدت إلى شراء سلاح ناري، قاطعت كل زملائي، بت وحيدًا في منزلي، لا أذهب للعمل، عيادتي البسيطة تنتظرني ولكنني أبدًا لا أذهب.. نعم لن أذهب.

ببساطة تامة "أنا اعيش مرضًا نفسيًا" – رهاب الخروج إلى العالم الخارجي، (فوبيا) من نوع خاص جدًا.. أدركت ذلك ولكن لم أستطع فك رموز مرضي، الآن فقط أشعر بمدى ما يعانيه المريض النفسي، "تبًا لكل شيء".. هكذا كنت أحدث نفسي دائمًا بغصة وألم في أسفل معدتي، ولكنه ألم نفسي.. تبًا لكل شيء.

كنت أعلم تمامًا أنه يجب إنهاء مخاوفي، ولكن أبدًا لن يحدث ذلك إلا بمواجهتها، أنت تدرك ذلك تمامًا.. ولكن كيف والفزع يقتلني؟! ماذ سيقولون عنك الآن يا كمال؟! ماذا سيقول أساتذتك الكبار حينما يدركون بأن الطبيب النابغة يجلس كفأر في جحر لعين يرتجف هلعًا من القط، الذي يقف منتظرًا بأسنانه الشرسة خارج ذلك الجحر.. ينتظر بلا ملل.. ينتظر أن يضع كلمة النهاية.. سيقولون أن الطبيب النفسي يعاني مرضًا نفسيًا.. أليس الأمر مدعاة للسخرية؟! ولكن من

قال إن الأطباء النفسيين ليسوا مرضى؟! فهم أخيرًا بشر ولهم مخاوفهم..

الأسوأ يا صديقي أنهم عرفوا ذلك.. عرفوه جدًا.. أنني أجلس هنا منذ ثلاثة أشهر. لا أغادر المنزل إلا عندما أتسلل خارجًا لأبتاع الفتات الذي يعيش عليه فأر مثلي.. ولكن ربما لا يدركون السبب.

جرس الباب.. ماذا؟ من يا ترى؟! أيكون قاتلاً آخر جاء لقتلي؟ كم هي الحياة غالية.. غالية جدًا..

اهدأ يا كمال! هل يستأذن القتلة؟! في حالتي هذه لا أعلم.. فكل شيء جائز..

وقفت أرقب الباب في هدوء.. كان الجرس في هذه اللحظات يخيل لي وكأنه يشبه الصوت العميق لأجراس الكنيسة.. يدق بعمق غريب.. الحياة تطورت الآن ويمكنك أن تسمع الموسيقى حينما يدق أحدهم بابك، ولكن أبدًا لن نستطيع أن ننسى كل ما هو عميق.. كل ما هو قادم من الماضي.. الذكريات الجميلة.

ولكن دعك من هذا الآن.

مازال الجرس يدق.. انتظر.. إنها صوت أقدام تتحرك.. إن صاحبها يغادر.. الحمدلله. تبًا لذلك الفضول! يا ترى من كان الطارق؟! وماذا كان يريد؟! هل أستطيع أن أفتح الباب الآن؟ بعض المخاطرة لن تضير.

فأي حياة تلك بدون مخاطرة؟! عليّ أن أردد تلك الجملة طويلاً لكي أخرج مما أنا فيه وكفاني فلسفة.

فتحت الباب بهدوء متسللاً بإحدى عينيّ، وأنا أمسح ككاميرا ضوئية حساسة - كتلك التي تعج بها الأسواق الآن - السلم.. مسحته بالكامل وتأكدت من عدم وجود أحد.. تنهدت طويلاً بعدما شعرت ببعض الاطمئنان، وحينما أشرفت على إغلاق الباب - الذي لم يُفتح من الأساس - وجدت خطابًا ملقى على الارض أسفل باب شقتي.. خطاب.. جميل هو الماضي بخطاباته وشوقه ولهفته، بعيدًا عن ذلك العالم التكنولوجي البغيض الذي أفقدنا كثيرًا من حميميتنا.. نعم، بصدق لقد خسرنا الكثير من الأحاسيس ودقات الانتظار التي تنتهي بالفرحة، بفضل التكنولوجيا الملعونة..

التقطت الخطاب في هدوء وريبة، وأغلقت الباب الذي دومًا ما يحدث صفيرًا كأفلام الرعب.. أظن أن ذلك الصوت يستخدمونه في أفلام الرعب حتى الآن، رغم التقدم التكنولوجي.. أترى؟! مازالت لنا بصمة لم يعوضها شيء.

فتحت الخطاب بسكين فتح الخطابات الذي أهدته لي "هدى".. التي أضعتها باسم الواجب والدراسة والظروف، وأعلم أن كل ذلك كان مجرد هراء.. كان مجرد كذب.. نعم، كان مجرد هروب.. لكم أفتقد ذلك الوجه البريء الملائكي.. أفتقده بشدة، ولكن دعنا من كل ذلك الآن..

كان الخطاب من دكتور محجوب الألفي.. لم أخبرك عنه من قبل، إنه أستاذ علم النفس في جامعة أكسفورد. عالم كبير له باع كبير في هذا العلم، وإنه أحد أساتذتي أيضًا الذين علموني الكثير، ونهلت من علمهم الكثير والكثير، ولقد علمت بأنه ترك الجامعة في الخارج وفتح عيادة كبيرة له في القاهرة، يقولون إن تلك العيادة تعج بالمرضى من كل صنف ولون، من هؤلاء الجهلة الذين يحسبون أن من يولول ليلاً مصاب بمس جني، ولا يدركون أن مريضهم يعاني رهاب الظلام، إلى هؤلاء المجانين الذين يرون أنفسهم بونابرت، أو موتسارت مثلاً لمجرد أنه امسك بعود لا يعرف حتى العزف عليه.

عزيزي د. كمال

لقد اشتقت اليك يا تلميذي العزيز، لقد ذهبت أنا وبعض الأطباء والمرضى في رحلة ترفيهية جميلة هنا في مصر، وتحديدًا في محافظة الفيوم الساحرة بمناظرها الطبيعية الخلابة، والمساحات الشاسعة الخضراء، وأناسها الذين إن وصفتهم بالطيبة والكرم كذبت، بل هم أكثر من ذلك بكثير.. ستستمر تلك الرحلة لمدة أسبوعين، وستكون الإقامة في بيتي الكبير الضخم الذي زرتني فيه قبل سنوات.. أنا على يقين أنك مازلت تتذكره.. فلقد أعددت كل شيء..

لقد ذكرت لك بأنها رحلة، ولكن ليس الأمر كذلك على الإطلاق، فإن بيننا قاتل.. قاتل خفي.. وأحتاج إلى المساعدة هنا، ولا أجد من هو أكثر منك نبوغًا ليساعدني في ذلك الأمر.. بالطبع إن الاطباء المصاحبين لي

لا يعرفون عن الأمر شيئًا.. ولكنني اتخذت جميع احتياطاتي، ولا تنقصني سوى مساعدتك.. فقد وقعت بعض الأحداث الغامضة، ويبدو أن مصدرها أحد مرضاي، وأظن أن الحالة ليست سهلة على الإطلاق، وتتمتع بذكاء كبير، والدليل أنني بنفسي وعلومي في علم النفس لم أكتشفه حتى الآن، كما أن الشرطة تشك بهذا الأمر، ولكن كما تعرف لا يوجد أي دليل يقودنا إليه.. من هو؟! حتى الآن لا أعرف.

بالمناسبة، لقد سمعت عن الحالة التي تمر بها.. إن كان ما سمعته صحيحًا، فلك الحق أن ترفض ولا تأتي، وسأقدر ذلك ولن ألومك، وإن كان ما سمعته على عكس ذلك، فأنا في انتظارك".

والدك: دكتور/محجوب الألفي

ماذا تريد مني يا دكتور محجوب؟! هل تعتقد بأنه الوقت المناسب لتسند لي تلك المهمة؟ سأرفض بالطبع.. ولكن ليكن بطريقة لائقة.. ولكن..

ماذا سيقول للأطباء الذين جاءوا بصحبته؟ بأنني أعاني بالفعل؟ ستسوء سمعتي.. لا، لن أسمح بذلك، إنه يستفزني بطريقة غير مباشرة، أنه يوجه لي التحدي بأسلوبه اللعوب، سأخرج خارج تلك الأبواب التي صممتها بنفسي داخل عقلي.. لا تكن متسرعًا ومتحمسًا يا كمال.. ماذا أفعل؟! وليكن إذن.. سأخرج بحذر، ولكنني لن أرفض.. وليكن الله في عوني..

"أشكرك د. محجوب على الدعوة.. انتظرني غدًا".

ابنك: د. كمال الشريف

خلال ساعة ونصف من السفر عبر الطريق الذي شعرته دهرًا ونصف، وربما أكثر، كنت أتابع كل شيء على الطريق بحذر تام، ولم أنس بالطبع قبل أن أركب أن أبحث في السيارة عن قنبلة وضعها لي مجنون في "شنطة" السيارة، أو ربما أسفلها، وتأكدت من الفرامل بعناية، فكل شيء ممكن في عالمي.. أؤكد لك ذلك..

خلال المشوار البغيض وأنا أفكر في ذلك المجنون الذي حاول قتلي، وكلما تراءت لي صورته تخيلته وحشًا يحاول الانتقام مني.. وقفت لبرهة على جانب الطريق وأنا ألهث لهثًا، وكأني عداء في سباق ماراثون استغرق شهرًا كاملاً.. ذكرت الله واستغفرته كثيرًا، وانطلقت في طريقي مرة أخرى حتى بلغت غايتي.

ها هو منزل دكتور محجوب الكبير، يبدو لي كقلعة، وأخبرته عن ذلك مرارًا، يقع في وسط الأراضي الزراعية.. ألم اخبرك بأن والده كان عمدة؟ عمدة من الطراز القديم، والقديم جدًا.. وما يميز ذلك المنزل الهدوء، الهدوء المرعب أحيانًا.. ولكن لا بأس، فهناك سأجد العديد من البشر ما بين مرضى وأطباء.. تبًا.. لقد نسيت القاتل! الشيء الذي جئت من أجله.. الشيء الذي تحديت من أجله مخاوفي لكي أصل هنا..

لا أحسبك غبيًا يا صديقي، فأنا أعلم بأنك تفكر الآن بأنني لم أقطع ذلك المشوار إلا خوفًا على سمعتي ومكانتي التي لم تتكون بعد بين زملائي الأطباء، ولكنها هناك والجميع يراها، بأنني الطبيب النابغة.. وأريد أن أصارحك بشيء آخر دفين في داخلي، نعم لقد جاء ذلك الخطاب ليقلعني مما أنا فيه.. لأواجه مخاوفي.. تلك هي الحقيقة، ولكن مازال الخوف يطرق بشدة على قلبي الضعيف المصاب بالهلع، وعقلي المريض المصاب بفوبيا الهلاوس.. الهلاوس التي يخلقها القتلة والسفاحون.

وصلت مع أذان المغرب، كان قرص الشمس يختفي في هدوء مظللاً تلك المساحات الخضراء باللون البرتقالي، فلو أمسك فنان ما بريشته الآن لأحدث ثورة فنية، أليس الريف ملهم العباقرة؟! ولكن لم أعلم لما سرت قشعريرة في جسدي، وحينما دخلت بسيارتي من بوابة المنزل الحديدي التي وجدتها مفتوحة.. انتابني بعض القلق، أين الغفير الذي يمسك بجلبابه ويرفعه قليلاً مهرولاً خلف السيارة مرحبًا بي بطريقته العفوية "منور الدنيا والله يا دكتور"؟! ولا تنسَ وأنت تنطق كلمة دكتور أن تضع فتحة على حرف الدال.. ذلك سيكون أفضل قليلاً.. أين دكتور محجوب الذي دومًا ما يجلس في تلك الشرفة مستمتعًا بمنظر الغروب؟ أين المرضى وأين الأطباء؟!

تبًا.. أين مسدسي الذي ابتعته؟! أين؟! اهدأ يا كمال.. الأمر ليس كما تتصور، هل يستطيع قاتل أن يقتل كل هؤلاء؟! هذا أمر مستحيل.. إنه

ليس دراكولا بكل تأكيد، تبًا للسينما التي تبالغ دومًا.. خرجت من أفكار هوليود وترجلت من السيارة وأنا أصيح مناديًا:

"دكتوز محجوب.. دكتور محجوب.. دكتوووووور"..

لم يكن هناك مجيب سوى صوت الضفادع الذي يتسلل من الخارج إلى داخل المنزل، صوت يُشعرك وكأنك في انتظار مواجهة النداهة أو أبو الليل، كان الظلام في هذه اللحظات يحتضن المكان.. أتذكر جيدًا مفتاح الكهرباء، إنه هنا خلف الباب.. وبهدوء خلال ذلك الضوء الخافت الذي يدخل المنزل: فتحت الضوء لكي أرى جيدًا.. ماذاااااا؟

"قتيل".. هكذا صرخت في داخلي بعينين جاحظتين.

الدماء تغطي صدره.. لا أستطيع رؤية ملامحه، هل أقترب؟! ربما يكون القاتل منتظرًا خلف الأريكة التي يجلس عليها القتيل بثبات.. بثبات أبدي.. ثبات لن يتغير أبدًا إلى الحركة.. اقتربت بعد محاولة لجمع رباطة جأشي.. حينما اقتربت.. لا!! إنه دكتور محجوب.. لقد قتله!

ناديت مرة أخرى بصوت مصاب بالصرع:

"هل من أحد هنااااا، يا أهل البيت"..

ولا مجيب سوى صوت الضفادع الذي اصطحب معه صوت ذلك العواء.. عواء كلب.. ألا يذكرك ذلك المشهد بشيء؟! إنها السيمفونية المخيفة التي تُعزف في قلعة الفزع قبل أن يُذبح الجميع..

صوت الضفادع، عواء كلب، قتيل، ظلمة تتسلل وخوف لعين يتملكني، قررت في نفسي إن نجوت أن أعتزل مهنة الطب وأن أعمل بائع ورود.. فبائعو الورود لا يتعرضون للقتل.. ولكن ألا استطيع أن أهرب؟ من خلال تلك الأبواب إلى سيارتي؟ لكن لا.. لن أهرب.. لن أترك جثة دكتور محجوب تُدفن بطريقة غير لائقة.. طريقة السفاحين.. لن تنجو أيها القاتل.. أنا د. كمال، ستتذكرني دومًا وأنت في زنزانتك تبحث عن مؤنس، لن تتذكر سوى وجهي وأنت تنتظر حبل المشنقة أو السجن داخل مصحة عقلية طوال الحياة.. سأكون أنا مرضك الذي تعانيه ولن تُشفى منه أبدًا.. أبدًا..

وهنا رأيت ظلاً يجري بسرعة البرق من خلفي ومن ثم اختفى، يا للجحيم، دق قلبي بسرعة مائة ميل في الثانية، ثم نظرت حولي فوجدت "شومة" أمسكتها بكلتا يديّ، حيث دبت فيّ الحياة في هذه اللحظة.. ذلك الدافع الغريب المختلط بالقوة والخوف معًا... إنه الصراع من أجل البقاء.. لم يبق هناك وقت للهرب.. ومن قال إنني كنت أنوي الهرب؟!

صعدت درجات السلم بهدوء، حينما سمعت جلبة في الطابق العلوي، كانت درجات السلم مغطاة بالخشب، تصدر أنينًا ترتجف له أعضاؤك كلما سمعتها.. مازالت الضفادع تعزف سيمفونيتها دون انقطاع.. والكلب يعوي.. هل هو كلب؟! والظلمة آتية لا محالة.. نعم، لقد غابت الشمس.. لم العجلة؟ وصلت إلى الطابق العلوي وحينها رأيت ظلين،

أحدهما يمسك بفأس ويضربه، والآخر يصرخ صرخة مفزعة.. صرخة مرعبة ثم يسقط.. يا ويلي.. لم أتخيل أن تكون نهايتي بفأس.. ألا يكون رقيقًا ويضربني بالرصاص؟ ولكن ما الفارق؟! فالنهاية واحدة..

أنا في مواجهة وحش دموي، أبدًا ليس قاتلاً عاديًا كما ذكر لي دكتور محجوب، ولكن ألم يذكر لي أيضًا بأنه لا دليل ضده؟ كما أن الشرطة لم تحصل على شيء سوى بعض التكهنات؟!

اقتربت وأنا مازلت أنادي.. ما هذا هناك؟ إنه ضوء خافت يسير، هل هذه روح على وشك الصعود؟! إنه يتراقص في هدوء.. تمعنت النظر أكثر فوجدتها "لمبة صغيرة" معلقة في السقف، تتمايل وكأنه عمل الرياح! ولكن أية رياح في هذه الليلة الجامدة كالموت؟! وفجأة هاجمني أحدهم.. ولكن أين الفزعة الأولى قبل أن يقوم الجاني بالقتل؟! ألست مهمًا بما فيه الكفاية لأحصل على الفزعة الأولى قبل أن أُقتل؟! يبدو أن قاتلنا لا يأبه لكل ذلك.. فهو يقوم بعمله على أكمل وجه..

دفعني بقوة فسقطت العصا مني، وسقطت أنا الآخر.. وحينها تذكرت تلك الدروس الغريبة في علم النفس، ولكن بماذا ستنفعني الآن؟ أي شيء يمكن أن ينفعني الآن؟!

فنهضت سريعًا وشاركته في الإمساك بالفأس من معصمه، وهو يحاول جاهدًا وبقوة أن يدفعه تجاهي ويدفعني معه، ولكنني لكمته بقوة بركبتي في بطنه وأمسكت بالفأس.. لقد سقط. أستطيع أن أرى

ملامحه من أسفل اللمبة الصغيرة.. أستطيع الآن أن أقتلك.. الآن فقط سيستريح كل من قتلتهم.. إنها العناية الإلهية.. الآن فقط تبدد خوفي.. حان دوري للقضاء عليه للأبد.. ولكن هل يشفي القتل؟! وهل يُشفى القاتل؟! إنه أمر مستحيل.. رفعت الفأس وهو ينظر لي نظرة فزعة تقول لاااا..

وهنا أضاء النور جميع أنحاء المنزل فجأة.. ماذا يحدث؟ وحينها رأيت دكتور محجوب واقفًا والدماء تلطخ صدره كما رأيته.. لقد عاد إلى الحياة.. ماذا؟! وهل يمشي الأموات؟! من خلفه رأيت بعض الزملاء وهم ينظرون لي مبتسمين.. وهاهو الغفير واقف هناك وقد وضحت على ملامحه البلاهة.. نقلت بصري بينهم جميعًا وأنا مازالت رافعًا الفأس.. لا أفهم شيئًا.. فنظرت إلى القاتل الذي كان ينظر لي مبتسمًا ابتسامة باهتة، ولكن امتلأت عيناه بالطمأنينة والود.. ماذا يحدث؟

"أحسنت يا كمال.. أحسنت، لقد تغلبت على مخاوفك".

هكذا قال دكتور محجوب.. ولكني مازلت لا أفهم شيئًا.. لا أفهم شيئًا على الإطلاق..

بعد نصف ساعة وأنا أجلس في مكتب دكتور محجوب أشرب عصير الليمون، وأنظر إليه بتعجب وحيرة أيضًا، قال وهو يراجع أحد الكتب:

"بالطبع تتساءل ماذا يحدث؟"

أومأت برأسي دون أن أجيب، فقال:

"هل سمعت عن السايكودراما؟"

ضاقت عيناي قليلاً بمعنى عدم الفهم، فقال وهو يلوح بيديه على سبيل الشرح:

" السايكودراما.. هو نوع من أنواع العلاج النفسي، وقد اكتشفها الطبيب الشهير "جاكوب ليفي مورنيو"، وقام بتأسيس أول جمعية لها عام ١٩٤٢، وهي طريقة يتعامل فيها مع النفس البشرية بغرض ترميمها وإصلاح ما حدث بها، كان مورينو مناهضًا لأفكار فرويد واهتم بدراسة العلاقات البشرية. عاش في فيينا ودرس فيها الطب والرياضة والفلسفة. شغل عدة مناصب في أمريكا، أهمها في جامعة كاليفورنيا. وحين حضر صفًا لفرويد، كتب عن ذلك في سيرته الذاتية وقال إن فرويد خصه من بين الطلاب وسأله عما يفعل،، فأجابه مورينو: "أنتَ تحلل أحلام الناس وأنا أعطيهم الدافع ليحلموا من جديد، أنتَ تحللهم لأجزاء وقطع نفسية وأنا أساعدهم ليقوموا بإعادة هذه الأجزاء مع بعضها البعض".

السايكودراما Psychodrama كلمة مقسمة إلى شقين.. السايكو – Psycho - تعني نفسي كما تعرف، والدراما – Drama - هي فن من الفنون الأساسية، وأنت تدرك تمامًا أن الدراما تحتضن العديد من العلوم الإنسانية، كعلم النفس الذي بدوره يدرس السلوك المعرفي

والإدراكي للإنسان، وسنجد أن الدراما في واقع الأمر تعتمد على مخاطبة النفس البشرية، وذلك عن طريق استخدام بعض الأساليب في بنائها.

والسايكودراما هي الدراما التي تُترجم إلى التمثيل الحركي، حيث تكمن وظيفة السايكودراما في تفريغ انفعالات الشخص ومشاعره الدفينة من خلال تمثيل أدوار لها علاقة بالمواقف التي حدثت له في الماضي أو التي تحدث في الحاضر أو التي ستحدث في المستقبل، حيث تتوافر العلامات التي تُنذر بحدوثها ليتحقق له الشفاء من الصراع الذي يدور بداخله".

سكنت قليلاً محاولاً تفهمه، ثم قلت:

"ولماذا لم تخبرني من البداية؟!"

فقال وهو ينهض من مجلسه:

"كنت أعلم أنك سترفض رفضًا تامًا، ولم يكن أمامي سوى هذه الطريقة.. إنشاء مسرح خاص لك.. تقبع فيه جميع مخاوفك، الممثلون تم إعدادهم بشكل رائع.. كلٌ لعب دوره بإتقان، ولم يكن ينقصنا سوى البطل، البطل الذي سيخوض التجربة بشكل حياتي.. حياتي جدًا.. ليهزم كل مخاوفه.. لقد تحديت نفسي.. وقلت بأنك اليوم ستصرع أي مرض بداخلك، فأنا أعرفك جيدًا.. شخصية لا تُقهر بسهولة".

بعد ثلاثة أيام قضيتها بين ربوع مدينة الفيوم، كنت أفكر وأنا في طريق العودة في كل ما حدث.. أفكر بهدوء، ثم فجأة انتبهت لشيء لم يخالج تفكيري أبدًا.. أن دكتور محجوب أبدًا لم يهتم بأحد في يوم من الأيام.. ربما كان معطاءً على الصعيد العلمي، ولكن أبدًا لم يهتم بأحد على الصعيد الشخصي..

يا ترى هل دكتور محجوب كان يسعى لشفائي من مرض الخوف من القتلة؟ أم كان يسعى لشفائه هو من مرض عدم اهتمامه بأحد؟ فهو لم يهتم بأحد يومًا.. لا أعرف يا دكتور بالضبط.. لمن كنت تجهز السايكودراما؟! لك أم لي؟! قد يكون هذا تفكيرًا شيطانيًا، ولكنها تبقى الحقيقة..

ليلي
Lily

لا أعتقد أنك قد تعتقد بأن ما تؤمن به قد يكون دربًا من الخيال.. لن تسمح لأحدهم بأن يستهزيء من عقلك، ويعطيك تلك الفكرة الساذجة عن كونك مكوّن مثلاً من أربعة وعشرين شخصية، وما أنت إلا مستخدم سيء لهم.. إنها الفلسفة التي تدفعك لتظن بأنك لست سوى دمية "ماريونت" يلعب بها الصانع.. هل تستطيع أن تؤمن بهذه الترهات والفلسفة الخبيثة التي تدفعك إلى الجنون والكفر؟! لا أعتقد..

ولكن يا عزيزي تنتابني بعض الأسئلة، هل نعلم كل شيء عن ماهيتنا؟! هل لدينا العلم الكامل بجميع جوانب الإنسان ومكوناته ومخاوفه؟! هل نستطيع أن نجزم وبشكل قاطع بأننا على اتصال بجميع أجزاء الكون المعروفة لنا، وغيرها من الجوانب التي لا نعرف عنها شيئًا؟! هل نحن نعلم؟!

لا أعتقد.. لا أعتقد ذلك على الإطلاق.

فأنا أؤمن جدًا بأن كل ما نكتشفه من علم ليس أكثر من اكتشاف لجزء جديد من جهلنا.. جزء يدفعنا للتحرر، وقد يدفعنا أيضًا إلى المكوث داخل زنزانة.. ليس لها قضبان.. لا يقف خارجها ذلك الجلاد الذي يتلذذ بتعذيبك كلما رآك.. ولا تنتظر الحرية.. لأنه لم يحكم عليك من البداية.. بل أنت من اخترت ذلك.. اخترته بإرادتك.

في ذلك اليوم كنت متجهًا إلى إيرلندا.. يوم ١٥ مارس عام ١٩٦٤، كان الجو رائعًا، مهما اختلف تعريف كلمة الروعة في نظر بعض ممن

يملكون أذواقًا ومزاجات مختلفة.. كنت متجهًا بالتحديد إلى قرية صغيرة تُدعى "كورك". أعتقد أنها الآن من أهم القرى السياحية هناك، لقد تغير كل شيء في عالمنا.. ولكن للأسف فإن معظم تلك التغيرات ليست سوى شيء يجردنا من ماهيتنا.. يجردنا من ذكرياتنا الجميلة.. اعذرني على اقتناعاتي هذه.. فأنا لا أؤمن بالتكنولوجيا.. بل إنني أكرهها.

كان الجو هادئًا خلابًا، مزارع متناسقة، وجوه هادئة، الريف الذي ربما لا يضاهيه ريف في العالم بأسره.. لا أعلم لم لا ينشئون هنا مستشفيات للعلاج النفسي؟! أظن أن يومًا واحدًا هنا قد يشفي مريض الغيبوبة بمجرد شم تلك الروائح العطرة.. ولكن هل يملك مريض الغيبوبة حاسة الشم؟!

حينما وقعت عيناي على تلك الفتاة التي ترتدي الحجاب الذي يشبه حجاب الراهبات؛ ابتسمت ابتسامة عميقة.. لا تتعجب يا صديقي، فإن إيرلندا من البلاد المحافظة للغاية مقارنة بأوروبا، فهم لديهم مدارس منفصلة، البنات في مدرسة والبنين في مدرسة، كما أنك لن تجد أي بيت لبيوت الدعارة، فغير مسموح بها على الإطلاق، كما أنك لن تجد رجلاً يُقبّل امرأة في الشارع، كما ترى الآن حتى في بلادنا إن جاز التعبير، هناك سماحة غريبة بينهم ربما لا تجدها كثيرًا هذه الأيام.. ربما لن تجدها على الإطلاق.

لم أقل لك لِم أنا هنا في هذا المكان بالتحديد!

لقد اتصل بي أحد أصدقائي الأطباء، وقد حدثني عن حالة غريبة لإحدى الشابات الإيرلنديات، ولأنه مشغول للغاية، ولأنه أيضًا لا يثق بأحد؛ فقد أرسلني إلى هنا في هذه البؤرة بالتحديد، وعلى الجانب الآخر من العالم، ولكن أليس من حقه الآن أن أرسل له جواب شكر مصحوبًا بالورود على ما أراه؟!

وصلت إلى المنزل المتواضع الذي يقيم فيه خمسة أفراد، رجل كبير قد يتعدى عمره الستين، ولكنه ذو نظرات حادة وبنيان قوي، واسمه "شيموس"، وسيدة تقل عن عمره قليلاً، طويلة، تملك نظرات أكثر حدة ولكنها لا تخلو من الود، واسمها "إيلي"، وهذا الاسم كان يعود لأحد الآلهة في إيرلندا، كما أن إيرلندا كانت تُسمى به قديمًا.. كما كان هناك ثلاثة شباب في مقتبل العمر.

موراي و ميلان و بوخان.. يمكنني أن أقول إن الثلاثة لا يمكن أن تجد فيهم شيئًا يميزهم عن بعضهم البعض.. رحبوا بي كثيرًا على قدومي، وعبروا لي عن مدى ألمهم بمجيء رجل غريب إلى ديارهم ليرى ما يعانون منه، ولكنهم أيضًا عبروا عن شكرهم لمشاركتي معاناتهم، إن لغتي الإيرلندية سيئة بشكل كبير، ولكنها كانت كافية بجانب استخدام بعض الإشارات وبعض الإنجليزية، التي كان يتقنها معظم أهل البيت..

بعد تناول الطعام معهم جلست في إحدى الغرف التي تقع في الطابق الثاني لذلك المنزل العتيق، كان للمنزل روح غريبة، تشبه تلك الأفلام

الأمريكية التي تقص حياة أوروبا في العصور الوسطى، عصور الدماء والحروب..

كانت الغرفة معدة بشكل جيد للغاية، ومريحة بشكل كبير، ولم أتعجب من ذلك أبدًا، فالقرية بكاملها توحي لك بأنك في الجنة، لا تُسيء الظن بي.. ولكنها من أجمل الأماكن التي زرتها على الإطلاق على مر حياتي..

في المساء كنت أجلس بجانب المدفأة التي التفت حولها الأسرة، وبدأت في عرض الأسئلة.. فأنا تقريبًا لا أعرف شيئًا على الإطلاق..

قال شيموس، الذي شعرت بأنه لم يحبني كثيرًا:

"إننا نحبسها في غرفتها منذ مدة، حاولنا معها بكل الطرق ولكنها لم تستجب لأي شيء، فلقد عرضناها على العديد من الأطباء، ولم يجدوا بها شيئًا غريبًا أو مرضًا عضويًا مثلاً، أؤكد لك أن كل شيء كان سليمًا.. حتى إننا.."

فأكملت السيدة إيلي الحديث، وهي تقول بهدوء محزن:

"لقد عرضناها على الكنيسة أيضًا، وقد أخبرونا هناك بأنه ربما قد تلبسها جني أو شيطان، أنت تعرف بالتأكيد مثل هذه الاعتقادات، وربما لا تؤمن بها، ولا ننتظر منك أن تشاركنا اعتقاداتنا، ولكنني أوقن

تمامًا أن التي تمكث في الطابق العلوي لهذا المنزل ليست ابنتنا، أو لأكون أكثر دقة، ابنتنا في زي آخر.. زي شرير".

أومأت برأسي دون أن أرد، وبعد لحظات من التفكير قلت لهم:

"ولماذا تعتقدون أن شيطانًا ما قد تلبسها؟"

قال شيموس:

"إنها تتصور أننا لسنا أهلها، كما أنها تقول أشياء غريبة.. غريبة جدًا، كما أن جميع أفكارها تدور في قالب من الهرب، الهرب من هذا العالم.."

- ألم تتوقعوا بأن يكون مرضها نفسيًا؟ هل هناك مثلاً من قسى عليها، أو ربما حدث لها حادث غريب.. في الملف الخاص معي أرى أن لي لي lily في الرابعة والثلاثين من عمرها.. وأرملة أيضًا.. هل كانت تُحب زوجها؟ هل لها أولاد؟

قالت إيلي وهي دامعة العينين:

"لقد كانت صغيرتي مرحة للغاية، وكانت متزوجة ولكنها لم تُنجب.. ولكن لم يكن ذلك مهمًا على الإطلاق بالنسبة لها، وكانت تقول دائمًا أن: الأولاد هبة لم يمنحها لي الله، وأنا أرضى بذلك تمامًا.. كما أنها كانت سعيدة للغاية مع زوجها إلى أن مات، ورغم ذلك عاشت لي لي

حياة هادئة لسنة تقريبًا.. كانت منغلقة بعض الشيء، ولكنها لم تكن بهذا السوء الذي وصلت إليه".

- هل حاولت أن تؤذي أحدًا مثلاً؟
- لا، على الإطلاق، كل ما تفكر فيه هو الهروب إلى العالم الآخر .
- وماذا تقصد بالعالم الآخر؟

هزت إيلي منكبيها وهي تقول:

"حاولنا أن نعرف ولكن بلا أمل".

- أريد أنا أراها.

نظر الجميع إلى بعضهم البعض على نور المدفأة الذي يظللنا، وقد تعجبت من ذلك كثيرًا، حيث اتضح لي أنهم لم يتوقعوا ذلك على الإطلاق، فقلت بهدوء:

"كيف ترسلون لي لأعالج مريضة ما من خلال بعض المعلومات؟ لا يمكن أن يتم عملي هنا بالوجه الكامل دون رؤيتها.. إن كنتم تودون شفاءها فيجب أن تسمحوا لي برؤيتها.. أنا لست ضارًا إلى هذا الحد!"

- ولكن – قالها شيموس..

- ليس عندي ما أضيفه يا سيد شيموس.. إن رفضتم سأحزم أمتعتي وأنطلق عائدًا إلى دياري في الصباح.. فلقد قطعت كل هذه المسافة من أجل ابنتكم.. القرار عائد لكم.

في الصباح دخل عليّ ميلان وأنا أجلس في غرفتي أُدخن لفافة تبغ، نظر لي طويلاً وهو يتأملني، ثم قال:

"هل هناك أمل في شفاء أختي؟"

ابتسمت له وأنا أقول:

"كل مرض وله شفاء يا ميلان.. كل مرض له شفاء بشكل أو بآخر".

- ولكنهم لا يؤمنون بذلك.. إنني أحب أختي جدًا.. فنحن لم نفترق أبدًا حتى حينما تزوجت.. كانت تسكن في الجوار، وكنت دائمًا هناك معها ومع زوجها الطيب.. قُدست روحه.. إنهم..

فدخل بوخاي علينا فجاة وهو ينظر لأخيه نظرة صارمة ذات مغزى، ثم قال وهو يوجه حديثه لي:

"لقد سمحوا لك بأن ترى أختي.. تفضل معي يا د. كمال".

نظر لي شيموس تلك النظرة الأبوية التي تعني "لن أسمح لك بأن تؤذيها".. أومات برأسي وأنا أنظر إلى إيلي نظرة هادئة مطمئنة.. كان الباب مغلقًا بقفل كبير.. قفل يكفي لحبس مجموعة من الذئاب

بالداخل، وليس مجرد قطة ناعسة تحاول الفرار إلى الخارج أملاً في الحرية.. ربما الأمر كذلك.. ولا داعي لكل هذه الإجراءات التي لا تتناسب سوى مع سفاح..

فتح بوخاي القفل ثم فتح الباب بالمفتاح، ثم أشار لي شيموس بيده بالدخول، ولجت إلى الداخل فوجدتها هناك تُعطي ظهرها لي، لم تأتِ كالمجنونة لتحاول الهرب.. بل كانت تجلس هادئة للغاية هناك عند تلك الشرفة.. تنظر في هدوء من بين القضبان الحديدية.. ربما تنظر إلى المساحات الخضراء.. ربما هي في عالم آخر لا نعمله، وربما تنظر إلى اللاشيء..

نقلت بصري فيما بينهم، هم أيضًا كانوا ينظرون لي تلك النظرات المترقبة المتوجسة، ثم أشرت لهم بالانصراف، وحينما شعرت بالتردد في أعينهم، أشرت لهم بأن الأمور على ما يرام، ويمكنهم الانتظار في الخارج على سبيل تأمين المكان إن حاولت الهرب..

وقفت خلفها، ثم قلت بهدوء:

"كيف حالك يا لي لي؟"

ولكن بلا مجيب، ثم قلت بهدوء:

"أنا كمال من مصر.. بلد الأهرامات والفراعنة.. بالتأكيد سمعتِ عنها.

أعرف تماما بأنك لا تريدين أن تتحدثي إلى أحد، وأنا لا أنتظر منك أن تتكلمي، ولكنني سأتكلم، في بعض الأوقات نحتاج لأن ننصت فقط، وهذا شيء جيد، ولكن طول الصمت قد يكون غير مفيد على الإطلاق، فالتعبير عن مشاعرنا من أجمل ما أعطاه لنا الله، وعليك في وقت ما أن تُعبري عن مشاعرك، وربما عن مخاوفك إن لزم الأمر، كوني على ثقة بأنني صديق يؤتمن، أنا طبيب، ولكنني لست مثل هؤلاء الأطباء المملين الذين يضعون السماعة على صدرك ثم يعطون لك تلك الورقة التي تحمل العديد من الأدوية، والتي قد تُؤتي أُكلها أو لا.. عن نفسي أنا أكره الأطباء، ولكن الأهم من كل ذلك أنك لن تجديني مثلهم.

أتعلمين يا لي لي أنني أيضًا أحتاج لطبيب؟ في بعض الأوقات أشعر بأنني مهدد بعقلي، هذا تعبير فلسفي كبير، ولكنني أشعر أحيانًا أنني مهدد من أشخاص لا أعرفهم، ينوون الانتقام مني، أستطيع أن أقول أنني كنت سببًا في دخول العديدين إلى المصحات النفسية والسجن.. دعك من هذا "يبدو أنني أهذي.."

أخذت نفسًا طويلاً وأنا أفكر، ثم قررت أن تكون بداية تعارفنا على هذه الشاكلة، وحينما شرعت في الانصراف، حيث نهضت من مجلسي واتجهت نحو الباب بهدوء:

"ألا تسمع ما أسمعه؟"

فنظرت خلفي بسرعة لأجدها كما هي، فقلت بهدوء بعد تفكير لثوان:

"إن اذني تؤلمني كثيرًا يا لي لي، ولكن هذا لا يمنع من أن تخبريني ما تسمعينه إن سمحتِ لي بمشاركتك".

قالت بهدوء:

"صوته وهو يتألم، إنه يخبرني عن مدى حزنه وهو يجلس هناك وحيدًا".

- صوت من؟
- صوت زوجي بيتر
- وماذا يقول لك يا لي لي؟
- لا شيء، إنه فقط يتألم، أستطيع سماع صراخه جيدًا، إنه غير مستريح هناك
- هل تسمعين بيتر فقط أم أنك تسمعين أصواتًا أخرى؟
- لا، إنه بيتر فقط وأحيانًا ما يخبرني بأشياء عديدة وهو يصرخ.
- هل يمكنني مشاركتك هذه الأشياء؟

لأول مرة تستدير بوجهها لي، ذلك الوجه الملائكي الذي تقع أمامه صريعًا، وجه قد يسحرك دون أن تدري، فأنا لا أتعجب إن كانت كل الشياطين تسكنها، فمن لا يتمنى أن يمكث هنا للأبد؟! ثم قالت:

"إنهم هنا في كل مكان، سيسيطرون على كل شيء، سيهدمون كل شيء، ولن يبقوا على ثمة شيء جميل أو قبيح هنا".

- من هؤلاء يا لي لي الذين تتحدثين عنهم؟
- الغرباء.
- الغرباء؟!!
- نعم.. ألم تلتقِ بهم؟!
- بالتأكيد سألتقي بهم.
- كن على حذر، أرجوك، أتمنى لو تذهب إلى ديارك.. لا تُطل المكوث هنا.. سيأتون إليك لا محالة..

لا أخفي عليك يا صديقي أن هناك قشعريرة بغيضة سرت في جسدي، ثم وجدتها تقول:

"إنهم في كل مكان ولا يمكن الهرب".

أخذت نفسًا عميقًا وأنا أتأمل كلماتها، ثم قلت:

"لا عليك، أستطيع الدفاع عن نفسي جيدًا".

ثم استدارت إلى الشباك مرة أخرى وهي تقول:

"الآن يمكنك أن تذهب، لا أريد أن أراك الآن، أريد أن أستريح بعض الوقت".

- هل يمكنني زيارتك اليوم مرة أخرى؟ أريد أن أعرف المزيد عن الغرباء.

أومأت رأسها بهدوء دون أن تجيب، ثم نظرت لها لوهلة وأنا أتأملها مفكرًا، ثم قرعت الباب ثلاث قرعات كما اتفقت مع أهل البيت، ففتحوا لي الباب. فخرجت وأنا أنظر لهم متأملاً، ثم قال شيموس الذي امتلأت نبراته بالتوتر:

"هل أمكنك أن تعرف ما بها؟"

قلت وأنا أنصرف:

"ليس من أول مرة يا سيد شيموس.. إن ابنتكم مريضة.. مريضة للغاية، وقد تأخرت حالتها جدًا".

- ما بها؟
- سأخبرك بكل شيء لاحقًا، ولكنني أريد أولاً أن أزور منزلها الذي تزوجت فيه.. أتمنى أنه مازال هنا ولم تفرطوا فيه.
- إنه مازال موجودًا ولم نحرك فيه أي شيء.. فإنه على حالته منذ تركته حين وفاة زوجها بيتر..

أومأت برأسي راضيًا، ثم قلت:

- جيد.

اصطحبني بوخاي وميلان إلى المنزل الذي كانت تقيم فيه لي لي وزوجها بيتر، وقفت أمام الصورة الكبيرة التي توجد على الحائط في غرفة المعيشة، إنها لي لي وزوجها، يبدو وسيمًا جدًا، لابد وأن يكون وسيمًا جدًا لينال شرف حبها، يبدو أنه طيب جدًا، ويبدو من خلال الصورة أنهما كانا عاشقين وليسا مجرد زوجين.. لقد التُقطت لهما تلك الصورة هنا.. في هذا المنزل..

"متى التُقطت لهما هذه الصورة يا ترى؟"

- بعد زواجهما بأيام – قال بوخاي
- لم يخبرني أحد كيف مات بيتر؟

ساد الصمت للحظات حيث كانا يقفان خلفي، فاستدرت حينما قال بوخاي:

"لقد سقط من فوق سطح المنزل وانكسرت رقبته فمات".

فنقلت بصري فيما بينهما بهدوء وأنا أشعل لفافة تبغ، ثم قلت:

"أتقصدون أن حادثًا مأسويًا أودى بحياته؟"

- نعم.
- أعتقد أنكم كنتم تحبونه كما تحبون لي لي، هل كان زواجًا تقليديًا أم..؟ أنتم تعرفون جيدًا ما أرمي إليه.

قال ميلان بسرعة وحماس:

"لقد كانا عاشقين، إنها قصة حب ألهمت كل شباب وفتيات القرية.. لي لي وبيتر.. إنها القصة الخالدة".

- فهمت.

نظر له بوخاي موبخًا على تسرعه في الإجابة، فبوخاي يشبه والده كثيرًا في تحفظه، وربما في أشياء أخرى.. أشياء كم أود معرفتها.

"أرى أن قريتكم جميلة للغاية.. هل يمكن لي أن أتجول فيها قليلاً؟"

نظر لي بوخاي بتعجب، ثم قال:

"ولكنك لا تعرف أحدًا هنا".

- نحن نحتاج لنجرب كل شيء لكي نعرف المجهول يا بوخاي..
- أقصد أنه لابد وأن يرافقك أحدهم.
- ولماذا لابد؟!
- حتى لا تضيع..
- أنا لست صغيرًا إلى هذا الحد.. يمكنني تدبر أمري وسأعود لاحقًا.. لا تقلق.. أنا لست ممن يهربون.

ابتسم ميلان ابتسامة بريئة بعد أن رأى أحدهم يهزم غريمه نيابة عنه، وانطلقت في طريقي لأنني عرفت بأنني لن أجد شيئًا غريبًا في منزل لي لي، ولكن من قال إنني كنت أبحث عن شيء غريب هناك؟!

تجولت بين الأراضي الجميلة، وبين وجوه المارة التي كانت ترمقني بحذر وتساؤل.. بالتأكيد كل من في القرية على علم بوصول الرجل الغريب.. لا يمكنك أن تخفي سرًا في بلدة صغيرة. وصلت إلى الكنيسة المتواضعة هناك، كان هناك بعض الأفراد الذين يتلون صلواتهم. ألم أقل لك بأنه يوم الأحد؟ نعم يوم الأحد البغيض بالنسبة لي..

كان القس يقف في هدوء يتلو صلواته. انتظرت قليلاً حتى انتهى، ثم نظر لي طويلاً وقال:

"أنت إذن الرجل الغريب.. أقصد الطبيب القادم من بلاد الشرق".

أومأت برأسي وحييته تحية لائقة، ثم قلت له:

"بلدتكم جميلة ولكنها لا تبوح بالأسرار، أقصد أنكم متكتمون للغاية".

ابتسم تلك الابتسامة الهادئة وهو يقول:

"إن الأسرار هي سر وجودنا في هذا الكون، هناك بعض الأسرار التي لا يمكن البوح بها، فبعض الأسرار معرفتها غير مجدية، بل إن معرفتها قد تجرفك إلى هلاكك".

ابتسمت وأنا أومئ برأسي متفهمًا، ثم قلت:

"أنت من أشرفت على زواج لي لي وبيتر؟"

- نعم، وكانا نعم الزوجين.
- أكنت تعرفهما معرفة شخصية؟
- جميع من في هذه البلدة أولادي.
- أتفهم ذلك، ولكن ماذا تظن قد حدث للي لي؟
- أظن أننا ننتظر منك إجابة هذا السؤال يا دكتور كمال.

لم أتفاجأ بمعرفته اسمي، ثم قلت:

"هل يمكن لطبيب أن يُشخّص حالة مريض نفسي دون أن يحصل على كل الإجابات الممكنة التي تساعده في شفائه؟"

أومأ برأسه متفهمًا، ثم قال بهدوء:

"لي لي كانت فتاة مميزة في كل شيء، كانت محبوبة من الجميع، الفتيات قبل الشباب، طيبة القلب وتساعد الصغير قبل الكبير، حتى جاء ذلك اليوم المشؤوم الذي فقدت فيه عقلها".

- إن لي لي لم تفقد عقلها.

نظر لي طويلاً بتأمل، ثم قال:

"ماذا تعتقد إذن؟"

"أعتقد أن هناك ثمة شيء يدور ولا تريدون إطلاعي عليه بأي شكل، ولا أعلم لم أرسلتم في طلب طبيب".

- لأننا نؤمن بالطب بكل تأكيد.
- إن كنتم تؤمنون به فلم لا تؤمنون أيضًا بتوفير المساعدة التي يتحدث عنها الرب، لكي أستطيع مساعدة تلك المسكينة.

أومأ برأسه ممتعضًا قليلاً، ثم قال بعد أن نقل بصره حوله ليتفقد الجميع:

"تعال خلفي".

وهناك في غرفة صغيرة مرتبة جلس وجلست في مواجهته، ثم قال:

"لقد كانت لي لي تحب بيتر كثيرًا منذ صغرها، ولقد كانت عائلتها تكرهه كثيرًا ولا يريدونه لها، ولكن أنت تعرف أن الحب الطاهر لا يمكن أن تعرقله أي إرادة بشرية، وجاء حادث بيتر الغريب فجأة، وانتهى كل شيء أيضًا فجأة، والآن تستطيع أن ترى بنفسك ما آل إليه الأمر، لقد تملك الشيطان منها وأصبحت شخصًا غريبًا".

- لقد قلت لك إنها مريضة وتحتاج للعلاج.. هل تعرف من هم الغرباء؟
- الغرباء؟!
- نعم، إن لي لي تتحدث عنهم كثيرًا.

هزّ منكبيه ثم قال:

- آه، بالفعل، أظن أنها تحدثت لي عنهم عندما أتوا بها إلى هنا، ولكنني لم أفهم شيئًا.
- هل تريد شفاء لي لي؟
- بالتأكيد، ومن منا لا يريد؟!
- ستساعدني إذن..
- في ماذا؟!
- سأقول لك..

في المساء كنت أجلس مع عائلة لي لي أتناول العشاء، وقد كان الصمت يغلف المكان بشكل مخيف، بشكل قد تتوقع معه حدوث أية كارثة، ثم قلت قاطعًا ذلك الصمت:

"لقد حانت جلستي الثانية مع لي لي، ولابد أن أراها الآن".

نظروا لي، ثم باستسلام أومأت إيلي برأسها، ثم نهضت من مجلسها وهي ترافقني إلى غرفة لي لي، وكان في صحبتنا أيضًا بوخاي.

دخلت على لي لي، التي كانت مازالت هناك تجلس وتنظر من خلف القضبان، جلست خلفها وأنا أقول:

"لقد قابلت الغرباء يا لي لي، أظن أنك على حق، لا مفر من الهرب منهم على الإطلاق".

قالت بهدوء:

"إنهم يأتون في الليل الكاحل ويسلبونك كل شيء تحبه، يسلبونك حياتك".

- ولكن علينا مواجهتهم يا لي لي.

استدارت لي بعينين استيقظتا من غفوتهما، امتلأتا بالفزع، وهي تقول بخفوت وخوف:

"لا.. لا يمكننا ذلك.. إنهم يحملون مطارق فولاذية لامعة ويرتدون أقنعة مخيفة، إنهم يستطيعون تدمير كل شيء، لن نستطيع التغلب عليهم".

- إذن ستمكثين هنا للأبد يا لي لي، وستموتين كما مات بيتر.

قالت بخفوت:

"بيتر".

ثم فجأة نهضت من مجلسها وانكمشت في ركن الغرفة، وهي تقول:

"بيتر، لقد قتله الغرباء.. ابتعد عني أرجوك.. سيقتلونني أنا أيضًا".

- لن يستطيعوا وأنا معك.. سنوقفهم وأهرب بك من هنا.. بعيدًا عنهم..

نظرت لي لي نظرة مخيفة فجأة، بعد أن كانت رأسها مندسة بين ركبتيها، ثم قالت بصوت مفزع:

"ابتعد عني".

وفجأة اقتحم علينا المكان ثلاثة يرتدون أقنعة مصنوعة من الصوف تم ثقبها من العينين، وفي أيديهم عصي، وقد كانوا يصدرون أصواتًا غريبة، ولكنني كنت أرقب تلك اللحظة. فهجم عليّ أحدهم بقوة فدفعته، وكان صراخ لي لي عاليًا كالعواء الذي يجلب الخيفة والفزع في النفس.

فأخرجت مسدسي الذي لا يعرفون بوجوده معي، وأطلقت رصاصة في الهواء.

فتوقفوا جميعًا وهم في مواجهتي، وكل منهم في انتظار الفرصة المناسبة للنيل مني، ولم أتعجب كثيرًا حينما حاول أحدهم ضربي بالعصا على رأسي، إلا أنني أصبته في قدمه برصاصة، فنزف، وعواء ليلي لا يتوقف، ثم سرعان ما سمعت جلبة في الخارج، وعلى إثرها قلت:

"لا يمكنك الاختباء أكثر من ذلك يا شيموس، اخلع قناعك هذا، فأنا لن أترك لي لي لكم، فأنتم المرضى هنا وليست لي لي".

كانت لي لي تحتمي فيّ، وحينما ملت برأسي قليلاً لأطمئنها رأيت ظل تلك العصا يهوي في الهواء، فملت قليلاً بعيدًا، فأصابت العصا رأس لي لي

بقوة، فهوت على الأرض والدماء تسيل منها بغزارة.. فانحنيت عليها صارخًا:

"لي لي... لي لي"..

ونظرت خلفي لأجد شيموس وهو يمسك بيده القناع بعد أن خلعه، وقد أصابت عينيه صرخة مكتومة، بينما كانت ملامحه غير مصدقة لما حدث، وجثى على ركبتيه، وأخذ لي لي إلى صدره وهو يحاول إفاقتها ولكن بلا أمل، وهنا جاءت إيلي مسرعة لتتقصى الأمر، فوجدت الأمر على هذه الشاكلة، فصرخت في وجه القناع الآخر قائلة:

"ماذا فعلتم يا بوخاي؟! ماذا فعلتم؟!"

بينما كان صاحب القناع الآخر، الذي أصيب بالرصاص، "موراي" الأخ الاصغر، ولم يكن ميلان هنا كما توقعت..

جاء أهل القرية وفي أيديهم المشاعل التي أضاءت المكان، حيث كان شيموس يحمل لي لي في هذه اللحظات وقد فارقت الحياة، وهو يسير بينهم بهدوء والصدمة متملكة منه، ثم وضعها على الأرض وهو يقول بحزن شديد:

"لقد قتلنا لي لي".

ثم توجه ببصره إلى القس الذي كان مندهشًا، ثم قال:

"لقد قتلنا لي لي يا أبتي".

بعدما جاءت الشرطة، ربما لأول مرة إلى هذه القرية الغريبة، وقبضت على جميع أفراد العائلة عدا ميلان.. كان الضابط يقف في مواجهتي، حيث كنت أشرح له:

"عندما أخبرتني لي لي عن الغرباء وأشياء غير منطقية، تأكدت بان لديها حالة فصام ذهني، حيث يتخيل المريض أشياء غريبة، وأحيانًا كثيرة بدرجة لا توصف ولا يمكن أن يتحملها العقل، فقد يعتقد مريض الفصام بأن هناك من يريد النيل منه، كالكائنات الفضائية مثلاً، أو قد يعتقد بأن من حوله قد تلبستهم مثلاً كائنات غريبة".

- أتعني نظرية المؤامرة؟
- بالضبط.. نظرية المؤامرة التي تتملك من عقل المريض وتجعله يتوهم أشياء غير منطقية، ولكن كانت كلمات لي لي غريبة بعض الشيء، وخصوصًا أن مريض الفصام يهوى العزلة ولا يسعى للهرب بالصورة التي قصها عليّ أهلها، وأقصد أهل لي لي بالطبع، ولكنهم لم يتخيلوا أن أشك في الأمر، وبالفعل قمت بعمل بعض التحريات البسيطة عن حياة لي لي لأعرف قصتها مع زوجها.. فقد كانوا يكرهونه كثيرًا، وقد تأكدت أنها تزوجته رغم أنف الجميع، وقد أثار هذا حفيظتهم، وانتهى به الحال مقتولاً.. لا أظن أن أحدهم قد يموت من تلقاء السقوط من الطابق الأول..

كما أن بيتر كان يتمتع بصحة ممتازة حينما رأيته في الصورة.. بنيان قوي جدًا.. ولكن يبدو أن الفتاة هنا لا يمكن لها أن تأخذ قرارًا بملء إرادتها، ويبدو أن الأمور اشتعلت، وقد قرروا الثأر لأنفسهم لأنه اغتصب حقوقهم.. وأرى أن كل شيء من تدبير شيموس، ومن ثم تقبلت لي لي الأمر ولاذت بالعزلة، لأنها لم ترد أيضًا أن تُلحق الأذى بأهلها.. ويبدو أنها حاولت الهرب قبل أن تصاب بالفصام، فأبقوا عليها، وأخافوها بتلك الأقنعة البهلوانية التي أوصلتها إلى تلك الحالة، وتصورت في عقلها المريض أنهم كائنات أخرى وأطلقت عليهم "الغرباء"، وقد تخيلت أيضًا أن هؤلاء الغرباء هم من سلبوها حياتها.. فاتضح لي أن لي لي لا تحاول الهرب على الإطلاق، بل هي مستريحة في مكانها طالما أنها بعيدة عن بطشهم، ويبدو أنها حاولت الهرب مرة.. أو ربما مرتين.. وقد استخدموا الأقنعة لتخويفها، ولكن تحول الأمر فيما بعد ذلك إلى مرض نفسي عميق.. ولكن للأسف ذهبت لي لي هي الأخرى لتلحق بزوجها المسكين.

وأنا اغادر القرية كان يقف في مواجهتي ميلان، الذي كان مبتسمًا ابتسامة حزينة وهو يقول:

"لم أستطع أن أخبرك بكل شيء، فلقد هددوني مرارًا بالقتل إن تجرأت وفعلت شيئًا، ولكنك قمت بما لم أستطع القيام به.. أشكرك يا د. كمال".

ابتسمت له ابتسامة ودودة، ثم انطلقت في طريقي وأنا أفكر، هل يا ترى شفيت لي لي؟!

أظن أنها شفيت تمامًا.. فإنها الآن في ذلك المكان تجلس في هدوء وسلام مع حبيب قلبها بيتر.. تجلس معه دون ألم، دون مرض.. دون غرباء..

اليد الغريبة

DR. Strangelove Syndrome

لم يكن أحد ليتصور ما حدث في هذه البلدة التي تقع على الطرف البعيد من العالم، ولم آتِ لهنا بدافع العمل فقط ولكنه الفضول يا سيدي، الفضول الذي قتل أعظم العلماء، وجعل من البعض مجانين، الفضول الذي يجعلك عبدًا تائهًا في ممرات السيد الوحيد الذي يتحكم في كل شيء، العلم.. العلم فقط.

في الليلة السابقة كانت هناك مكالمة هاتفية بيني وبين صديقي الطبيب "إدوارد باكستون" في أستراليا، حدثني عن أمر غريب يحدث في إحدى المدن الصغيرة التي تقع قريبًا من "بيرت" في القطاع الغربي من أستراليا، في الحقيقة أن دكتور إدوارد لا يتصل إلا إذا كان الأمر خارجًا عن السيطرة ولا يوجد توضيح، فأنا أعلم دكتور إدوارد جيدًا، ذلك الرجل فارع الطول، شديد البياض، قد يبدو شفافًا للدرجة التي تتخيل بها أنه يمكنك أن ترى ما خلف ملامحه، زائغ البصر دائمًا، قد يبدو لك لوهلة أنه رجل مجنون مع شعره المنتفش كديك يستعد لقتال شرس.

لم يوضح لي ثمة شيء عما يدور هناك، ولكنه قال بإيجاز: "دكتور كمال، لا تلق باللوم عليّ لاتصالي في هذا التوقيت، ولكن العلم قبل صداقتي هو ما دفعني، نحن نحتاجك في الحال".

لم يمر يومان حتى كنت في أستراليا، وكان في انتظاري دكتور إدوارد الذي بدا مشوشًا للغاية، وقد بدا عليه أنه لم ينم منذ مدة طويلة، ربما لأيام، وكان يمسك بإحدى يديه كوبًا بلاستيكيًا، واضح أنها قهوة

مركزة، وقبل أن يتحدث أخبرته بألا يستسلم لآلة العلم المتهورة المفرطة، وأن يترك لي راحة مناسبة من هذا السفر الطويل المرهق، لم يمانع ولكني رأيت في عينيه شيئًا آخر، وسألت نفسي سؤالاً، ألهذه الدرجة الأمر خطير؟!

نزلت في أحد المنازل المتوسطة أنا ودكتور إدوارد، كان منزلاً ذا طابقين، هناك مسحة أرستقراطية مازالت عالقة به، نمت لأربع ساعات بعدها أفقت لأجد دكتور إدوارد يجلس وحيدًا أمام أوراق كثيرة متناثرة حوله في شكل فوضوي، وهذا ما لا أعرفه عن ذلك الطبيب المنظم والمرتب لأفكاره ولكل شيء، ولكن دعنا نقف أمام الحقيقة التي نحن بصددها الآن، لم يشعر بوجودي في الدقائق الأولى، ألم أذكر لك أننا كنا في عام ١٩٧٥؟ إنه عام مميز في كل شيء إن سألتني عن رأيي، فقد تغير وجه العالم تقريبًا في هذه الفترة.

نظر لي طويلاً، ثم جاءني ببعض الطعام الذي رفضته، وسرعان ما أتت القهوة الإنجليزية التي أعشقها منذ أن اعتدتها منذ سنوات طويلة، حدثني عن أحواله في الفترة الأخيرة، وبعض الحالات النادرة التي التقى بها خلال عمله في مجال الطب النفسي، وقد أسعدتني كثيرًا نظرياته ورؤيته فيما يخص بعض الأمراض الخطرة، وبعد ذلك صمت لثوانٍ ثقيلة وهو يتأمل تقريرًا أمامه، وقد بدا لي أنه تقرير جنائي، ثم نظر لي نظرة ذات معنى وأعطاني ذلك التقرير، أخذته منه وأنا مازلت أنظر في عينيه نظرة متشككة.

نعم له كل الحق في أن يكون فوضويًا، أن يكون متوترًا وقلقًا، أن يتغير كل شيء في حياته، فنحن هنا أمام كارثة، ولا يوجد تفسير واضح لما يحدث، تقرير كامل، أسماء أشخاص لقوا مصرعهم بطريقة غامضة ولكنها مدهشة، تجعلك تشعر وكأنك تقف أمام مجرم يعلم بالضبط ما يفعله، ولكن هذه البلدة التي أمكث فيها الآن هادئة للغاية، أو كانت هادئة قبل وجود ذلك الوحش، أستطيع القول بمنتهى الثقة أن ما يحدث لهذه البلد لم يحدث في تاريخها، وربما لن يحدث.

الضحايا كلهم أستراليون ولا يوجد بينهم ملونون على الإطلاق، كما نعلم أن من هم من غير البيض يُنظر لهم تلك النظرة العنصرية التي يتبرأون منها حتى الآن، إنهم عجزة أمام غرائزهم ونظرتهم تلك، التي أصبحت شيئًا يتداولونه بالوراثة، لاحظت أيضًا من بعض التقارير الأخرى أن الضحايا جميعًا وُجدوا في منطقة واحدة، وهذا شيء غريب للغاية، فكيف لم تستطع الشرطة أن تكثف جهودها لتلقي القبض على ذلك السفاح؟ إن كان بالفعل من يقوم بالقتل هو واحد فقط، طرق القتل مختلفة، هناك قتل بالسكين، وهناك أيضًا بالرصاص، وهناك من تم شنقه أمام الكنيسة القريبة، وقد تم صلب عدد لا بأس به من هؤلاء.

- أظن أن الأمر انتقامي يا دكتور إدوارد.
- أنا واثق من ذلك، ولكن كما ترى لم نتوصل لشيء، فلا يوجد دليل واحد يقودنا إلى شيء، ورغم تكثيف الجهود فذلك

القاتل لم يتوانَ عن القتل، أو حتى يشعر بالخوف، فآخر جريمة قتل ارتُكبت منذ أسبوع واحد فقط، وفي الحقيقة نحن لا ننتظر القبض عليه، وإنما نحن في انتظار ضحية جديدة.

- ألهذه الدرجة الأمر محبط؟!
- كيف نقبض على شخص لا نعرف دوافعه الحقيقية؟! لم يمكنني أنا بعد كل هذا العلم أن أتوصل لشيء واحد في صدد هذا الامر! تخيلت في البداية أنه ربما يكون مصابًا بالفصام، أو ربما لديه غريزة انتقامية، أو أي مرض معروف كما تعلم قد يقودنا إلى معرفته أو معرفة كنه المرض، ولكن بالمقارنة لا يوجد مريض بهذه الأمراض المعروفة يقوم بارتكاب جرائمه بهذه الدقة المدهشة، كما أنه لا يترك أثرًا خلفه، فمن هم مصابون بنوعية الأمراض المعروفة هذه مشوشون ولا يمكنهم التركيز بشكل مطلق، لا يمكنهم أن يقتلوا بهذا الذكاء والوحشية معًا، فهاتان صفتان لا تجتمعان إلا نادرًا جدًا..
- دكتور إدوارد، ماذا تقول؟! إن أعظم المجانين هم من ارتكبوا جرائم بدقة متناهية، بلذة خاصة وبدموية لا نظير لها، كما تدري أن هناك حالات ترتكب جرائمها وكأنها تتفنن في وضع بصماتها على عمل فني.
- أنت محق، ولكن انظر معي! كيف لشخص أن يفعل كل ذلك بكل هذه البراعة؟ فهناك جرائم ارتكبت وسط النهار، انظر

لهذه الصورة أيضًا لهذه الضحية التي تم صلبها يوم الأحد، ووجدوها حينما خرج الناس بعد القداس، وكأنها قربان، انظر أيضًا إلى الصبي الصغير الذي تم ذبحه بدم بارد. القاتل المتسلسل يختار نوعية واحدة من الضحايا، نساء أو أطفال أو رجال، لا يمكنه أن يجمع بين الجميع، وأنت تعرف ذلك جيدًا، فجميع السفاحين على مر التاريخ كان لهم ذوقهم الخاص وطريقتهم المميزة في التخلص من ضحاياهم، مثل "إيد جين" قاتل النساء وملهم كتّاب السينما الدمويين، وهناك أيضًا "فلاد الوالاشي" الذي اشتُهر بالخوزقة كما تدري، ولا تنسَ "فريتز هارمان" وحش هانوفر المرعب، الذي اشتُهر بالشذوذ مع الأطفال وتعذيبهم قبل قتلهم، كما ترى لكل منهم تيمته وعشقه الخاص، أما ما نحن بصدده الآن، فهو قاتل من أجل القتل وليس اللذة.

نظرت له وغصت في أفكاري ثم قلت: لقد عدنا إلى نفس النقطة، من يقتل: يقتل بغرض الانتقام.

- الانتقام، لا يوجد أي خيط يجمع هؤلاء الضحايا ببعضهم البعض، كلهم مختلفون في كل شيء، ولنقل إنه انتقام، انتقام ممن وما هو الدافع الحقيقي وراء هذا الانتقام البشع؟!
- انتقام عرقي.. ربما..

جحظت عيناه وهو يقول: انتقام عرقي؟!

ابتسمت بود وأنا أقول: دكتور إدوارد، هناك الكثير من المهاجرين في بلدتكم، قد يكون أحدهم بكل تأكيد لديه مشكلة معكم أنتم يا أصحاب البشرة البيضاء، وستجد جرائم عديدة مسجلة في التاريخ تحت هذا البند الصاخب.

- أتعني أن هناك قاتلاً بلا رحمة يجوب للخلاص من عرق بعينه؟
- لا أرى حلاً آخر بكل أسف.

ساد الصمت الثقيل مرة أخرى بينما نحن نفكر، ثم قلت له فجأة وبابتسامة واثقة:

- ما رأيك في كأس من الويسكي الإنجليزي؟!

نظر لي مندهشًا، فهو يعلم جيدًا أنني لا أشرب الكحوليات، وربما ذلك أحد أسرار حيويتي، ولكنه فهم المغزى من خلف طلبي الغريب هذا، فابتسم ابتسامة خفيفة وهو يومىء برأسه.

كنت أجلس في إحدى الحانات التي توجد في المنطقة التي ترتكب فيها الجرائم في مواجهة صديقي، لا أشرب شيئًا سوى كوبًا من القهوة الكبير، طعمها ليس سيئًا، كنت أعلم أنني أبحث عن إبرة في كومة قش، وأعلم أن القش طازج منتفش، وأعلم أيضًا بأنه ربما لا توجد

إبرة، ولكن عليّ استخدام خيالي وحدسي الذي لا يخطيء، وربما ذلك هو الفارق بيني وبين غيري من الأطباء المشاهير.. الحدس..

درت بعينيّ في المكان أتفحص جميع المتواجدين، ثم بهدوء نظرت لصديقي الذي يجلس أمامي شاردًا: لاحظت أن معظم الحوادث حدثت يوم الأحد؟

- نعم، تقريبًا حادثتان فقط حدثتا في أيام أخرى، وحسب ذاكرتي يومي الإثنين والأربعاء على ما أعتقد.

أومات برأسي دون أن أتفوه بكلمة، وسحبت القهوة وجلست على كرسي مواجه للبار، ثم ابتسمت للساقي وأنا أقول بود: يوم صاخب دومًا هو الأحد!

ابتسم بود وهو يقول: كل الأيام صاخبة يا سيدي من يوم أن وُجد ذلك السفاح في بلدتنا المنكوبة.

أومأت برأسي دون أن أجيب، كان هناك العديد من الأشخاص في المكان، بعضهم مجموعات، بينما يناثر بعض الأفراد على طاولات مختلفة، لم يكن هناك شيء مميز في أحدهم إلا شخص ما، أسمر البشرة، يبدو أنه من المهاجرين، ربما أفريقي، استوقف نظري حيث كان يلعب بقلم في يده بطريقة غريبة، ليس هناك شيء غريب في أن يلهو أحدهم بقلم على سبيل الخروج من بعض الملل، أو ربما يفكر في شيء ما وهذا أمر طبيعي. فهناك من يغني وهو

يفكر أحيانًا. ولا يختلف الأمر عندي عن رياضة المشي حينما تحتاج للتفكير العميق. ولكن الغريب في أنه يوقف يده بيده الأخرى وكأنها ليست ملكه. ثم ينظر حوله كفأر يتلصص ليتأكد من وجود القط اللعين. وسرعان ما ينظر نظرات حائرة متوجسة. ابتسمت في نفسي من تصرفاته التي تشبه تصرفات الأطفال حينما يعبثون دون علم أحد. فسعادتهم الحقيقية تكمن في تلك اللحظات المسروقة.

شخصية مثل هذه قد تبدو غريبة ولكن أن تقتل.. فهذا شيء سخيف للغاية. فهو لا يملك مثلاً الغموض المستوحش في المجرمين، ولا الهدوء أو النظرة النارية في السفاحين، ولا الاضطرابات المعهودة في التصرفات، كالضحك المفاجيء أو البكاء المفاجيء مثلاً في بعض الحالات. ولكن فجأة خطر ببالي شيء ما، ثم عدت للساقي وأنا أقول: هل تعلم كل المترددين على الحانة هنا؟!

- أعرف معظم من يأتون بحكم عملي كما تعلم. فالزبائن يحتاجون لإفراغ ما في أحشائهم أحيانًا وما في عقولهم أحيانًا أخرى. والساقي الذكي من يستطيع أن يساعد على ذلك. ولكن ليس على التعرف عليهم، بحكم عملي الذي دام لسنوات أستطيع أن أخمن من يقف أمامي وماذا يريد أن يقول. قبل أن يفكر حتى في قوله. فأنت على سبيل المثال،

تبدو لي كباحث وليس من رواد الحانات، وهناك شيء ما جذبك إلى هنا، شيء يدفعك بشدة لتعرف الحقيقة، ولا أستبعد أن تكون أحد الرجال الذي يعاونون الشرطة في الفترة الأخيرة.

ابتسمت دون أن أرد، ثم قلت له: سأقرضك ما تريد، ولكن قل لي من هذا الذي هناك، هذا الشاب قوي البنية الذي يلهو بالقلم؟!

- أنت تقصد "ساتروين وايلد"؟ إنه مسكين، يتيم، ولقد تبناه أحدهم يومًا ما وكان يسيء معاملته بشكل مبالغ فيه، كما ترى أنه من الأفارقة، الذين ينتمون إلى فترة الظلام والاستعباد، أقصد بالطبع فصيلته، وربما ذلك هو السبب الحقيقي الذي دفع من تبناه أن يعامله بتلك الطريقة، يتحدثون عن التفرقة العنصرية في الجرائد والإعلام فقط، ولكن في الحقيقة التفرقة موجودة في كل شيء، لقد تُوفي من تبناه منذ ثلاثة أشهر تقريبًا، إثر حادث بائس، حيث وجوده في منزله وقد صعقته الكهرباء، الغبي لم يصلح الغسالة قبل أن يستخدمها فصعقته الكهرباء، وقد شك الجميع في "ساترويت"، ولكنه لم يكن موجودًا من الأساس، ولم يكن هناك شيء ضده، فتركوه وورث كل شيء من بعدها، وكما ترى، من وقتها وهو يتردد على الحانة، يجلس كما ترى يشرب كثيرًا، وبعدها يختفي تمامًا حتى اليوم التالي، إنه بائس.

- بائس بسبب متبنيه؟!
- ليس ذلك فقط، ولكن في مرة من المرات ضربه متبنيه على رأسه ضربة قوية، وقد كاد يموت، وقد عمدوا إلى عمل جراحي في رأسه، ومن حينها وهو كما ترى.
- هل شكت الشرطة به إثر الحوادث التي حدثت في الفترة الأخيرة؟!
- إنها لم تترك أي شخص إلا وشكت به وطلبته للتحقيق، حتى أنا، وبالنسبة لـ "ساترويت"؛ نعم، لقد حققوا معه وتركوه في الحال لأنه لا يوجد شيء ضده.

شكرته ثم اتجهت إلى صديقي الذي كان يتابعني من وقت لآخر، ليعرف ما أفعله، وحينما اتجهت إليه سألته بهدوء: متى تمت أول عملية قتل؟!

- منذ شهرين تقريبًا.

ابتسمت ثم طلبت منه الانصراف في أمر عاجل، وبالفعل اتجهت إلى مركز الشرطة، وجلست مع المحقق المختص بالقضية وشرحت له الأمر، واتفقنا على شيء ما. كان متعاونًا وذكيًا أيضًا، وقد تحمس لفكرتي بشكل كبير، ذهبت من بعدها إلى صديقي وأخبرته بكل شيء، كان يسمع كلماتي التي كنت أشرحها له بذهول تام، بنظرة متشككة ولكن بعقل علمي يحلل الأمور ويفندها بشكل مرتب ومنطقي، في الحقيقة كانت الأمور واضحة لي، ولكن أنت تعلم، اكتشاف سر

الجريمة يحتاج لذكاء يفوق ذكاء مرتكبها، ولكن الأمر هنا أن مرتكب الجريمة ليس شخصًا، بل هو شيء أقل من ذلك، جسد متحرك، منفصل عن الواقع.

بعد ساعتين من كل ذلك، وكان الوقت ليلاً. كنت أجلس في سيارة بجوار صديقي دكتور إدوارد، في مواجهة الكنيسة نراقب الشارع الذي تقع فيه جميع الحوادث، أستطيع أن أقول إن الجو كان قارص البرودة بشكل يجعلك لا تشعر بأطرافك، كنت متدثرًا بمعطف صوفي ثقيل، والصقيع كان يمنعني من الرؤية، كنت أدري تمامًا أن ليلة الأحد تلك ستكون صاخبة ومميزة، ولن تحدث لي مرة أخرى، ولم تكتمل تصوراتي حتى ظهر أمام الكنيسة فجأة جسد معلق من رقبته، يحاول بقدر الإمكان أن يصرخ ولكن الحبل أقوى بكثير، ولا يمكن أن يتسلل ثمة صوت.. ترجلنا بسرعة من السيارات، حيث كانت الشرطة قريبة، محاولين بصعوبة أن ننقذ هذه المرأة البائسة التي تحرك قدميها بصعوبة تامة، حيث تم ربط يديها خلف ظهرها، وقد تقطعت ثيابها تمامًا، وصرخت قائلاً: ابحثوا عن "ساتروين".. إنه بالتأكيد قريب من هنا، وفي وسط الضجة الكونية المباغتة للبرق والرعد معًا ليكتمل هذا المشهد البائس، لم أستطع أن ألمح إدوارد، لم يكن موجودًا على الإطلاق.

"إدوارد.. إدوارد"..

صرخت كثيرًا باحثًا عن إدوارد في كل مكان، ولكنه لم يكن هناك، أُضيئت المصابيح الذابلة أسفل الصقيع، نرى بصعوبة مبالغة، أين إدوارد؟! وكيف اختفى فجأة؟! هل ساتروين بهذا الذكاء وبهذه السرعة المتقنة؟!

اتجهنا سريعًا إلى منزل ساتروين، وهناك وقفت قوات الشرطة التي استطاعت بصعوبة تامة أن تنقذ المرأة المسكينة المعلقة من حبال الموت، كان الصمت مخيمًا على المكان، المنزل كبير يتكون من ثلاثة طوابق، كلاسيكي بشكل رائع، يقع في أسفله على الجانب الأيمن جراج للسيارات استخدمته للتسلل إلى داخل المنزل، لم أكن أدري حينها أنني أفتح ملفًا مجهولاً لا أعرف عنه الكثير، وكان معي ثلاثة من قوات الشرطة مصوبة بنادقهم في الفراغ، أستطيع أن أرى بسهولة حالة الهلع الممتزجة بالترقب في عيونهم، صوت أنفاسهم المتصاعد، ولجت إلى الطابق السفلي، ولم يكن هناك ما يريب سوى أن هناك أحدهم يجلس في بؤرة ضعيفة من النور، بينما الظلام يخيم على كل شيء، تجمدنا في أماكننا، فلم تكن ملامحه واضحة، لم يكن شيئًا واضحًا في الحقيقة، وهنا صوب الرجال الثلاثة بنادقهم وهم يهددونه بضرب النار إن لم يستجب في الحال وينهض ويعلن عن نفسه، ولكن بلا مجيب، كان الخوف قد بلغ أوجه مع تسمر ذلك الشخص، شعرت بشيء غريب تجاهه، وسرعان ما اقتربت وأنا أعلم النتيجة، التي ربما ستكون النتيجة الأخيرة في حياتي.

كان إدوارد مربوطًا إلى الكرسي تسيل منه الدماء، تسيل من منطقة ما، عيناه جاحظتان، مكمم الفم، ينظر لي نظرة بائسة جاحظة. يطلب شيئًا لا أعلمه. حينما فككت الكمامة من على فمه توسل لي ألا أفك قيده، وهذا ما لم أفهمه، تركت الحبل وأنا أنظر له، بكى بشدة وهو يقول متلعثمًا من فرط الرعب: "أرجوك يا كمال، لا تفك قيدي. فك قيدي يعني الموت المحتوم".

فكرت طويلاً فيما يقوله. ونظرت خلفه لأجد الحبل المربوط به متصلاً بحبل آخر مشدود إلى حائط خلفه على بعد متر تقريبًا. وهناك يقبع ساطور.. دلفت إلى غرفة إدوارد، كان يقبع على السرير فى نفس المستشفى في صمت، وحينما رآني ابتسم ابتسامة عريضة لم أرها منذ وصولي، جلست بجواره وشعرت بالاطمئنان عليه، مجرد كدمات في جانبه وقدمه اليمنى وكذلك يده اليسرى، لكنني وجدت شيئًا غريبًا للغاية، قلمًا فى يده يلهو به، بطريقة أعرفها تمامًا، طريقة تتصرف وحدها وكأنها جسد آخر لشخص آخر..

نعم، تلك الطريقة أعرفها بدقة.

الجحيم

Under world

لم يعد هناك شيء يستحق المبالغة، أليس كذلك يا صديقي؟! فإن الآدمية فكرة مستنيرة للغاية لا يمكن تحقيقها على هذه الأرض، وإن الجحيم فكرة مكتملة العناصر، مخيفة، بل ومفزعة إن فكرنا فيها لوهلة، ولكن ما هو الجحيم إن قورن بما يفعله البشر في هذه الأيام المظلمة؟!

نعم، أغمض عينيك قليلاً وتناول ما يحدث حولك.. أترى ما أرى؟

نعم أشعر بك.. أصبح تصور الجحيم ليس بهذا السوء إن قورن بأي شيء آخر يحدث الآن.. هل كسبت الشياطين المعركة؟!

في تلك الليلة من شهر نوفمبر عام ١٩٩٩، وفي ضاحية كليفتون التي تقع في مدينة بريستول في إنجلترا، وبالتحديد في الساعة الثامنة صباحًا؛ كنت أجلس خلف إحدى النوافذ في فندق أنيق يتمتع بهدوء لا تتمتع به معظم الفنادق في هذه المنطقة، أكاد أرى المطر المنهمر بلا توقف، والسحب التي احتشدت من أجل معركتها الكبرى، والرياح التي تتناغم في هدوء، ليس كذاك الهدوء الذي فُقد في مصر مع العصر الحديث المقيت،

تبًا للتكنولوجيا يا صديقي، التي سلبتنا كل شيء جميل.

ومع تأملاتي العميقة، ونظراتي الثاقبة من خلف عويناتي على الأشجار الكثيفة المترامية على مرمى الطريق البعيد؛ دق جرس هاتف غرفتي، نظرت له لوهلة قصيرة وهو يدق، وبعدما أخذت نفسًا طويلاً أمسكت

بالسماعة، وبعد دقيقة تقريبًا من سماعي للمتحدث أغلقت الهاتف بعد أن أخبرته بأنني قادم خلال دقائق.

وقفت بهدوء وأنا ما زلت أتابع ذلك العامل وهو يقص فروع الأشجار بمقصه الطويل، بلا ملل وبلا رأفة أيضًا، إنه يعمل عليها منذ الفجر، لم يتوقف، ومقصه أيضًا لم يتوقف، يعيد إليها حيويتها وشكلها الجميل، بالتخلص من بعض فروعها التي أعطت لها شكلاً بغيضًا إن لم يكن مخيفًا.. هكذا أعتقد، وربما يفعل ذلك من منطلق عمله ليس أكثر.. ربما..

لا تتعجب إن قلت لك إن بعض الأشياء يجب أن تبتر جزءًا منها لتحصل على كمالها، أليس هذا أيضًا شيئًا غريبًا، بل ومخيفًا إن فكرنا بعمق؟!

كان الشاب العشريني الفارع الطول، صاحب العينين الناعستين والشعر الطويل غير المنتظم والملامح الحزينة في انتظاري، وحينما رآني قادمًا جاء بسرعة في اتجاهي قائلاً:

"أنت دكتور كمال الشريف، أليس كذلك؟" – ليس صعبًا أن تتعرف على مصري في دولة أوروبية.

أومأت برأسي قائلاً:

"نعم يا جيمس، أنا دكتور كمال الشريف".

- لا تعلم حقًا مدى سعادتي بمجيئك إلى هنا يا سيدي، فأنت أصبحت ملاذنا الوحيد بعد أن فقدنا كل وسيلة ممكنة للنجاة مما نحن فيه.

حدثني جيمس عن أخيه مايكل الذي احتجزته الشرطة، وبعد فترة لا تتعدى اليومين تم تحويله إلى مصحة نفسية، حيث اعتقد الأطباء هناك بأنه خطر على المجتمع، والغريب أن مايكل متهم بالشروع في قتل صديقته صوفيا، بعد أن اعتدى عليها بشكل تئن له الأبدان وتثور له القلوب الرحيمة إن وُجدت، وللأسف لم يحصل الأطباء منه على أية معلومة شافية للتوصل إلى شكل حالته العامة، لتحديد نوع العلاج الممكن، بل لتحديد اسم المرض الذي أصيب به. وعرفت من جيمس أن مايكل يلتزم الصمت منذ أن دخل إلى المستشفى، حيث يبدو أنه مازال تحت تأثير الصدمة.

وفي طريقنا إلى المصحة نظرت إلى السماء التي اشتد غضبها، حتى شعرت لوهلة بأنها ستسقط علينا، هل هذا غضب؟ أم أنه اليوم الأخير؟!

هذه الزيارة يا صديقي لم تكن أبدًا من أجل العمل أو الاستكشاف، ولكن أنت تعلم تمامًا ذاك الشعور الكريه حينما يسرقنا العمر فجأة ويرمينا بلا مبرر، بعد أن ينهي عمله فينا ونبقى مجرد خردة لا فائدة منها، مجرد آلة لعرض الذكريات..

الأمر مخيف جدًا بالنسبة لشخص مثلي، جاب العالم من شرقه لغربه، ولن أتحمل فكرة الجلوس خلف مكتب متهالك أمارس مهمة القراءة لتضييع الوقت المتبقي من عمري، أو فتح تلك الآلة المربعة الشكل والمضمون لأتابع أحداث العالم الكريه، فقد تعودت أن أكون محركًا للأحداث وليس مجرد متأثر بما يحدث.. نعم أنا لست أحد هؤلاء ولن أكون، ولذلك قررت أن أسافر لأستعيد ذكريات الماضي مع كل بلد وكل مدينة وكل قرية زرتها في حياتي، ولكن القدر كان كريمًا حينما اتصل بي جيمس ليطلب مساعدتي، حينها فقط شعرت بمدى أهميتي، وصدقني إن قلت لك بأن الإيمان بالشيء يحققه، وأنا آمنت بأن رسالتي لم تكتمل بعد.

فحينما تؤمن بشيء ما بشدة يستجيب الكون لك ويحققه..

وقفت أمام مايكل في هذه الغرفة المرتبة بعناية تامة في المستشفى التي يرقد فيها تحت حراسة مشددة، وتأملت الغرفة لوهلة، فلم أجد أية آلة حادة، كسكين أو أي شيء يمكن استخدامه في الإيذاء بأي طريقة كانت، ثم عدت ببصري إليه فوجدته كما رأيته أول مرة، غارقًا في عالم آخر، عيناه الزرقاوان ثابتتان على اللاشيء، جمود وجه يوحي إليك بأنك تقف أمام جثة هامدة، شعره المترامي على جبهته وملامحه الجميلة توحي إليك بشباب نادر، كانت الحياة تدب فيه بلا توقف، بل تزداد قوة، ولكن أحيانًا للقوة وجه آخر.

وفي طريقي إلى الخارج لم يتوقف جيمس عن إلقاء الأسئلة بلهفة تكاد تمس حد الجنون، وحينها توقفت فجأة ونظرت إليه وقلت:

"جيمس أريدك أن تقص عليّ قصة أخيك مايكل مع صديقته صوفيا".

أخبرني جيمس بأنهما وقعا في الحب منذ عامين تقريبًا، ولقد رفضت عائلتها الأمر بشدة، حيث إنها عائلة كاثوليكية متشددة للغاية، وأقرب ما تكون إلى التعصب، لقد التقيا في العمل وأحبا بعضهما البعض، ولكن لاقيا ما لا يمكن تخيله من عائلتها، من غضب وخلق أنواع مختلفة من الحواجز لتفشل علاقتهما، ولكنهما تحديا الجميع، واستمرت علاقتهما رغم كل الظروف التي تستطيع أن تقتلع أية علاقة من جذورها، وفي يوم من الأيام عاد مايكل إلى المنزل حزينًا جدًا، ولم يتكلم، وكان ذلك اليوم قبل هذا الحادث الأليم بشهر تقريبًا، ومن بعدها تحول مايكل المرح إلى مايكل البائس الحزين، لم يكن يتكلم كثيرًا، بل كان في أغلب الأوقات لا يتحدث على الإطلاق.

"وهل كان في هذه الفترة يرى صوفيا؟".

- بالتأكيد كان يراها.. أم.. لا أعلم.. الحقيقة أنني أتكهن ذلك فقط، ولكن يمكنني أن أؤكد بأنني رأيتهما مرة مع بعضهما البعض في إحدى الحدائق، وكان الجو في هذا اليوم قارس البرودة، وقد شدني المنظر حينما كان مايكل يلوح بيديه

بعصبية لها، حيث كنت متجهًا بسيارتي إلى المنزل، وكانت صوفيا منهارة تبكي، ولكنني لم أسترق النظر طويلاً، وعدت إلى المنزل معتقدًا أنها مجرد مشكلة بين حبيبين، ككل تلك المشاكل التي تزول سريعًا.

- وماذا حدث بالضبط بعد ذلك.. أقصد يوم الحادث؟

بدا جيمس حزينًا جدًا بعد أن أطرق قليلاً إلى الأرض، ثم قال:

"في تلك الليلة كان مايكل يجلس في مواجهة المدفأة، وفجأة دق جرس الهاتف، وبعد دقيقة أخبرته أمي بأنها صوفيا، وقد بدت أمي منزعجة من شيء ما، وبعد ثوانٍ هرول مايكل سريعًا خارج المنزل وكأنه سمع خبرًا لم يكن بالجيد على الإطلاق، وبعد ساعة تقريبًا سمعنا بالخبر المشؤوم".

- أي خبر؟
- خبر الجريمة - قالها بمرارة وهو يمط شفتيه.
- نعم أعلم.. ماذا حدث لصوفيا؟
- لقد.. لقد.. وجدوها وقد بُترت قدمها اليمنى واقتُلعت عينها اليسرى.

جحظت عيناي واتسعتا على آخرهما وأنا أنظر إلى جيمس، الذي كان يبكي في هذه اللحظات، وبعد أن استعدت التفكير التسلسلي للأحداث

ابتسمت ابتسامة مفعمة بالمرارة، ثم طبطبت عليه واتجهت إلى مركز الشرطة.

هناك أخبرني المسؤول عن القضية أنهم وجدوا مايكل في غرفتها وفي يده منشار، وقد كان شبه غائب عن الوعي، بل كان أقرب ما يكون بجثة ميتة، جاحظ العينين، ساكنًا، أو لنقل مصدومًا، بينما كانت هي مغشيًا عليها نتيجة ما فقدته من دماء، إن الأمر كله مجنون إن سألتني عن رأيي في ذلك.

كان عليّ في هذه اللحظات أن أستعيد الترتيب المنطقي للأحداث، وأن ألوذ ببعض الهدوء في غرفتي الجميلة الهادئة، فما سمعته ورأيته يُعتبر من أبشع الجرائم التي يمكن تخيلها، ولكن لا أظن أن الأمر مجرد جريمة، إن الأمر أعمق من ذلك بكثير، الأمر بالنسبة لي هو سر لا يعرفه سوى مايكل وصوفيا.

لا أستطيع أن أُخفي عليك، إن الهدوء كان مستحيلاً في هذه اللحظات بالذات، وأنا على الجانب الآخر من الغموض الغريب المتعلق بهذه القضية، التي تبدو لوهلة مستحيلة التصديق.

عاشقان يتحديان العالم ويواجهان أسرة صوفيا المتعصبة دينيًا، علاقة ليست بالقصيرة، بعض الخلافات العادية التي تحدث بين أي حبيبين من آن لآخر بكل تأكيد، المحصلة جريمة دميمة لم تؤد للقتل، ولكنها أدت لتدمير حياة الاثنين، أي نوع من البشاعة هذا؟! أحيانًا

تتحول بعض الزهور إلى نباتات شيطانية، هكذا يقول علماء النباتات، ولكنني أستطيع أن أشم في هذه القضية رائحة الشيطان، الشيطان الذي يرتدي ثوب الملاك المُخلّص.

كانت صوفيا ترقد في هذه اللحظات في هدوء تام، وتحت حراسة مشددة في إحدى المستشفيات، دخلت إليها في هدوء تام، ولم تشعر بي، ولم ترني أيضًا لعدم قدرتها على الرؤية بإحدى عينيها، وأنت تستطيع أن تتخيل ما أود قوله، استمر تأملي كثيرًا في هذا الملاك النائم، يبدو أنها كانت تملك من الجمال ما لم تملكه الكثير من الفتيات، هل الأمر كله لم يكن أكثر من عملية انتقامية قام بها مايكل من جمال لا يستطيع أن يملكه؟!

وبشكل مفاجئ مالت بوجهها قليلاً وهي تقول:

"من أنت؟"

ابتسمت قائلاً:

"أنا د. كمال الشريف".

تأملتني للحظات، ثم نظرت أمامها وهي تقول بلا مبالاة:

"لا يمكن إصلاح ما لا يمكن إصلاحه يا دكتور، أرجوك اذهب من هنا".

- ومن قال إنني جئت للإصلاح، يبدو أن أحدًا لم يخبرك أنني قادم لزيارتك، أنا هنا من أجلك ومن.. (وسكتت قليلاً حتى التفتت مرة أخرى بعينها التي تلفعت بالشاش).. أجل مايكل.

فهمست قائلة:

"مايكل".

كان صوتها ممتلئًا بالحسرة والحزن، لم يشبه أي نوع من الغضب أو الازدراء، ولم أرها تتمتم باللعنات. نعم لم أسمع ما ينبغي أن أسمعه.

اقتربت منها قليلاً ثم قلت:

"إن المسكين يرقد صامتًا تحت الملاحظة في إحدى المصحات النفسية، أظن أنه يستحق ما حدث له، وقريبًا سيتم زجه في السجن، ربما لمدة طويلة جدًا".

نظرت أمامها وهي تقول:

"إنها حقًا مأساة، ولكن هذه إرادة الرب".

- إرادة الرب! أي رب؟!
- الرب خالقي وخالقك، نحن نُقصّر في حقه كثيرًا، وعلينا أن ندفع الثمن كما ترى – كانت لهجتها تحمل التعصب الذي توقعته.

- ماذا تعنين؟! لا أفهم.

قالت وهي تنظر بهدوء نحو الشرفة المواجهة لي:

- الآن يمكنك أن تذهب يا دكتور، فأنا لم أتكلم مع أحد سواك، ولكني ضقت ذرعًا بالصمت، والآن أشعر بالراحة، وأتمنى أن يغفر لي الرب.

الرب.. المسامحة.. الجريمة.. الغفران.. الهدوء الغريب الذي يسيطر على طرفي الحادث: صوفيا ومايكل.. هل ما أفكر فيه صحيح؟! أتمنى ألا يكون الأمر على الشاكلة التي أتصورها.. أتمنى ذلك بصدق، وأن ينتهي الموضوع على أنه جريمة استثنائية لا تحدث كثيرًا..

أحيانًا تكون بعض الجرائم أخف وطأة من حقيقتها المفزعة..

في غرفتي مكثت ساعات طويلة وأنا أتأمل الأمر، كان الهدوء يخيم على كل شيء، وكلما تأكد لي شيء من ظنوني شعرت بالفزع من تقبل الفكرة، ولكن يا صديقي هذا هو مجال عملي، ولا يعنيني كثيرًا ما يحدث في هذه القضايا، لا يهمني أكثر من فك طلاسمها لتُسجل باسمي فيُخلّد بجانبها، حتى وإن كان من يُخلّدها هو مجرد جار لا يعلم عني شيئًا سوى بعض الذكريات التي تحويها كراسة، قد تختفي في أي وقت، وحينها قد اختفي معها.. أختفي للأبد.

في اليوم التالي صباحًا قمت بالاتصال بالضابط المسؤول عن القضية، وأخبرته بأنني أريد مقابلته في الحال، وبالفعل بعد ربع ساعة تقريبًا كان يقف أمامي، وأخبرته كعادتي بأنني عرفت ما حدث بالضبط. وقد شعر بالتعجب قليلاً ولكنه كان مستمعًا جيدًا لما أقول، واتفقنا على أمر ما..

بعد نصف ساعة تقريبًا كنت أقف في مواجهة مايكل الذي كان شاردًا وصامتًا للغاية، نعم، إنه لا يشعر بوجودي.. دسست يدي في جيب سترتي، وأخرجت مفكرة صغيرة وأنا أنظر إليه، ثم فتحتها بهدوء وشرعت في القراءة:

"وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه *فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم *وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم" (إنجيل متى - الإصحاح الخامس ٢٨-٣٠).

كنت أتابع مايكل وأنا أقرأ عليه تلك التراتيل بقوة وبلا توقف، كان يرتجف رويدًا رويدًا، حتى انفجر فيّ وهو يقول صارخًا:

"إنه عقاب الرب، ألا تفهم؟! كان علينا أن نفعل ذلك حتى يرضى عنا.. لا أريد أن تكون نهايتي في الجحيم.. لا أريد أن يُلقى جسدي في الجحيم".

وخرّ باكيًا..

نظرت له بشفقة وعطف، ولكنني سرعان ما تمالكت نفسي قائلاً بحدة:

"اقتلعت عينها وبترت قدمها لتغتسل من ذنوبك، وها أنت الآن وقد ضاع مستقبلك، الغريب أنك لم تغتسل من خطيئتك كما فعلت هي.. أنت تعيش ذلك الدور المبتذل يا مايكل، لا تتوقع بأن أصدقك يا عزيزي، فأنت تختفي خلف راية الدين، ولكنك لست أكثر من سفاح مريض، ولكن الشيء الغريب الذي يحيرني: إن كنت بهذه القوة، لِمَ لَم تستخدمها على نفسك؟ أم أنك تستخدمها على النساء فقط؟"

صرخ قائلاً وهو يبتعد في أحد أركان الغرفة، وأنا ألاحقه، ثم صاح بشدة:

"ابتعد عني.. أرجوك ابتعد عني، أنا لم أفعل شيئًا".

- سأجعلك تواجه الموت يا مايكل، لن أستريح إلا وأنت تواجه الموت، ولكن الموت من عقاب الله.

فصرخ قائلاً:

" لا أرجوك.. أنا لم أفعل شيئًا، ولم أستطع أن أفعل أي شيء من ذلك، ولم يكن بيدي أن أوقف ما نوته صوفيا".

بعد نصف ساعة تقريبًا كان مايكل يجلس في صحبتي وفي صحبة الضابط المسؤول عن الحادث، وهو يروي ما حدث بالضبط.

"لقد كنا نحب بعضنا إلى درجة الجنون، وكما تعلمان فصوفيا من عائلة متعصبة دينيًا للغاية، وفي ليلة زاد فيها الشوق ووصل الحب إلى أوجه؛ حدث ما حدث بيننا، وأنتما تفهمان جيدًا ما أعنيه، وبعدها تحولت حياتي إلى جحيم، أصبحت صوفيا تعاقب نفسها بشدة، أحيانًا كنت أرى جسدها مصابًا بالعديد من الجروح الغريبة التي لا تحدث أبدًا من تلقاء نفسها، وبعدها أثّرت على تفكيري ببكائها المتواصل، وبالتشاؤم والإحباط اللذين أصيبت بهما، ولن أستطيع أن أصف لكما مدى معاناتي معها، وكان كل ما أوده أن تستريح من عناء تفكيرها وعذابها الذي تعيش فيه..

لقد اعتبرت ما بيننا خطيئة (وأجهش في البكاء).. ولا بد أن ننقذ نفسينا من بطش الرب، وبالفعل امتثلت لرغبتها، ولكن بعد تفكير طويل قررت ألا أشاركها الأمر على الإطلاق، ولكن في ليلة ما جاءني اتصال منها وهي تقول: لقد قررت أن أقوم بالأمر وحدي، وأن أنقذ جسدي من عذاب جهنم، ذهبت سريعًا إلى بيتها كالمجنون لأجدها على الحالة التي هي عليها الآن وقد غابت عن الوعي.

من أثر الصدمة لم أستطع أن أصدق ما حدث، وشعرت بالذنب، شعور مرير (وازداد بكاؤه)..

ظللنا لدقيقتين تقريبًا حتى هدأ قليلاً، ثم قال:

"قررت أن أنتقم من نفسي أنا الآخر، وأن أتهم بهذه الجريمة، فلا حياة دون صوفيا".

في الخارج وقف الضابط ينظر لي طويلاً وهو يقول:

"أي نوع من الأمراض هذا؟!"

ابتسمت له وأنا أقول:

"إنه مرض التشويه الذاتي، وهذا النوع خطير جدًا، فهو ينقسم إلى ثلاثة أنواع، وهذا النوع اسمه تشويه الذات الجسدي الجسيم Major self-mutilation، وهو الصنف الذي ينتج عنه فقد لعضو كامل، أو قدر كبير من أنسجة الجسد، ولهذا السبب فإنه غالبًا ما يحدث مرةً واحدة، ويشمل مثلاً إخصاء الذات self castration، قلع العين eye enucleation، أو سلخ الوجه facial skinning، أو بتر أحد الأطراف limb amputation، وعادة ما يرتبط هذا الشكل المروع من أشكال تشويه الذات بحالات الذهان، مثل الفصام أو الاضطراب الثناقطبي من الدرجة الذهانية، أو الاكتئاب الجسيم من الدرجة الذهانية، أو النقص العقلي أو (الثّمل) التسمم intoxication بمادة مخدرة أو نفسانية التأثير كالكحول، وكثيرًا أيضًا ما يتعلق هذا الصنف من

تشويه الذات بالمواضيع الجنسية أو الدينية، كعقابٍ على ذنب أو بدافع الرغبة في التطهر من الجنس أو خوفًا من الشذوذ الجنسي.

ولكن كما ترى الأمر هنا مختلف مع فتاة متعصبة دينيًا من أسرة متعصبة دينيًا، ويقول "فافازا" مكتشف المرض إن ذلك يبقى مقصورًا على فئة من المتدينين المسيحيين، وكذلك قلع العينين (Favazza, ١٩٩٨)، بل إنه يذكر آية من آيات العهد الجديد في إنجيل متى، ونصها كالتالي "وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه * فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقى جسدك كله في جهنم * وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقى جسدك كله في جهنم" (إنجيل متى - الإصحاح الخامس ٢٨-٣٠). ويقول "فافازا" إن هذه الآيات كثيرًا ما يستشهد بها مرتكبو التشويه الجسدي الجسيم، ويستكمل قائلاً إنه بحث عن حالة قلع ذاتي لعين واحدة في غير الثقافات المسيحية؛ فلم يجد في الصين ولا في اليابان ولا سنغافورة ولا هونج كونج ولا الهند ولا في السكّان الأصليين لأستراليا ولا بين مواطني غينيا الجديدة.

- الآن فهمت لِم كنت تواجهه بتلك التراتيل، ولِم كنت مصرًا على عدم دخولي تحت أي ظرف كان، لا أُخفي عليك بأنني كنت أرتعد في الخارج عندما صرخ، وكنت على وشك الدخول ولكنني امتثلت لتعليماتك المشددة بعدم الدخول، وكنت مذهولاً مما أسمع، إن الأمر مخيف ومرعب، ولكنني أخيرًا أشكرك يا دكتور كمال، فأنت رجل ذكي وبارع، والآن

سنصرف مايكل من المصحة بعد تأكدنا من عدم تورطه فيما حدث، ولكننا سنبقي عليه قليلاً حتى يتعافى نفسيًا..

في طريقي إلى إحدى الحدائق، وأنا أتأمل الأمر برمته؛ شاهدت فتاة جميلة وشابًا، ولكن يبدو أنهما يتشاجران، فاقتربت منهما، فنظرا لي في حيرة واستنكار، فقلت:

"أرجوكما قولا لي إن الأمر لا يتعلق بـ "فافازا"!

الجثة الحية

Walking Corpse

كنت في ذلك اليوم أجلس في منزلي لا أفعل شيئًا، في الحقيقة كنت سعيدًا جدًا بوحدتي في هذه الأثناء، وكنت حينها في ريعان شبابي، ربما خمسة وثلاثون عامًا، فأنت تعلم جيدًا أنني لم أتزوج، أو ربما تزوجت ولا أستطيع أن أتذكر، دعك من ذلك الآن، كانت آخر قضية قمت بحلها منذ حوالي ثلاثة أشهر، ولم أشعر بالملل وأنا غارق وسط أفكاري المجنونة والمخيفة أحيانًا، ولكن وبكل صدق في جزء مني اشتقت لقضايا غامضة، فهذا الأمر هو سرّ وجودي في هذه الحياة، فلم أجد لذة تضاهي قرع أبواب الغموض ومحاولة فك طلاسمه.

سمعت دقات بابي في اللحظة التي أوشك فيها النوم على التملك مني وأنا أمسك بكتاب عن الأحياء الموتى، كتاب غريب ولكنه رائع إن سألتني عن رأيي، تحسست جسدي بهدوء محاولاً بقدر الإمكان التأكد أنني لم أسلم روحي بعد للمجهول، وأنا أقف ناهضًا محاولاً استعادة الواقع، دق الباب ثانية بدقات منتظمة، ولكن من يدق الباب يدقه مستخدمًا عصا ما وليس يديه بكل تأكيد، فإن الدقة عميقة ولها رنة خاصة جدًا.

تعجبت قليلاً ثم توجهت إلى باب المنزل وتصنّت، فأنت تعلم تمامًا أن المجرمين والمجانين كثيرون في هذا العالم، وأعتقد أن معظمهم يعرف دكتور كمال الشريف جيدًا، فهو صاحب الفضل في الزج بهم، سواء في مصحة نفسية أو السجن بكل تأكيد.

كان فارع الطول ذا شارب كث، عظام وجهه بارزة وكأنه عائد من القبور طازجًا، يرتدي جلبابًا بنيًا، ذا أكمام واسعة، يمسك بيده عصا طويلة "نبوت"، تنتمي إلى أرض الصعيد، في الحقيقة أنه يبدو صعيديًا للغاية، عيناه خالية من الحياة، لا يوجد تعبير بها، وهذا الأمر مخيف للغاية، نظر لي طويلاً قبل أن ينطق بكلمة واحدة، تفحصني من أخمص قدميّ حتى آخر شعرة فيّ بنظرة لا تعطي انطباعًا معينًا، ولما كان الصمت ثقيلاً، سألته عن هويته، فردّ قائلاً وهو يدخل دون أن أدعوه:

أنا القدر يا ولدي.

لكنة صعيدية لا تُخطئها أذن، ولكنها عميقة ومخيفة، صوته يشبه دقات أجراس الكنيسة يوم الأحد، عميق يترك أثرًا مدويًا في النفوس، ولكن دعك من صوته، ماذا يقصد بالتحديد من إجابته الغريبة هذه؟! ما أكثر المجانين في عالمنا هذا!

لم يجلس، بل ظل ينظر في جميع أنحاء المنزل وكأنه يأخذ فكرة عن شقة، من قال إنني سأبيع الشقة؟! ثم قلت بانفعال: من أنت؟! وماذا تريد؟! بعد قليل من الصمت التفت لي وهو يقول: نحتاجك في الأقصر، وهناك ستعرف الإجابة.

نظرت له أتامله قليلاً، ولأعطي لنفسي مساحة من التفكير:

"ولماذا تريدني بالتحديد؟!"

- قلت لك إنك هناك ستعرف الإجابة.

ياله من رجل غامض! هكذا حدثت نفسي ثم قلت بهدوء:

أظن أنك أخطأت في العنوان، أنا لا أعرف أحدًا في الأقصر.

- ولا تعرف أي شيء عن أي مكان تذهب إليه إلا بعد زيارته، هذا عملك، تبحث عن الأسرار الدفينة، وها أنا هنا من أجل أن أطلعك على سر جديد، سأنتظرك في الأسفل، لا تتأخر وأحضر معك ما ينبغي أن يكون معك.

وانصرف دون كلمة أخرى وتركني وحيدًا بين أربعة جدران أتخبط بين أسئلة لا حصر لها، كان فضولي أقوى من غريزتي في الإبقاء على حياتي، رجل غريب ذو هيئة غريبة، يدّعي أنه القدر وجاء ليأخذني إلى الأقصر من أجل سر جديد يضاف إلى أسرار حياتي، يعرف تمامًا كيف يعزف على أوتار عقلي بكلمات قليلة، أعرف أنني بعد قليل سأكون بجواره متجهًا إلى الأقصر، أعرف ذلك تمامًا.

عبر الطريق الطويل في القطار لم ينطلق بكلمة واحدة، خلدت للنوم أكثر من مرة ولكنني كنت أصحو لأجده مستيقظًا ينظر في الفراغ، لا يتحرك له جفن، ثابتًا كمحارب قديم ينتظر رياح المعركة، أذهلني بصدق كل شيء فيه، وخصوصًا صمته الذي برع فيه.

حينما وصلنا كانت هناك سيارة صغيرة في انتظارنا، أخذ مني السائق حقيبتي الوحيدة بعد أن أشار له صديقنا الغامض بحركة من رأسه، ووضعها في حقيبة السيارة بعد أن قبل يديه، ولم ينطق الآخر بكلمة واحدة خلال الطريق إلى قرية صغيرة هادئة، دخلت إلى أحد المنازل المتواضعة، ولكن في الداخل كان المكان مثاليًا للغاية، أثاث أنيق وكل ما يلزم للحياة كان هنا، دخلت إلى إحدى الغرف بصحبته، ثم قال: اخلد إلى النوم الآن، سنتقابل ليلاً.

في هذه الليلة لم يكن هناك سوى ثلاثة أفراد، وكان أحدهم الشخص الغامض الذي علمت فيما بعد بأن اسمه درويش، وهو ابن عمدة هذه البلدة، والغريب في درويش هذا أنه لم يُعرّفني على الشخصين الآخرين، ولكنهما كانا مدثرين بنفس الثوب تقريبًا، عباءة طويلة سوداء، وكأنهم سيقدمون عرضًا مسرحيًا مرعبًا أو ربما سيشاركون موتسارت في عزف قداس الموتى الذي جعله يموت هو الآخر.

فلو كنت لا تعلم يا صديقي، فاعلم أنه في يوم من الأيام كان موتسارت في حاجة إلى المال، ويومها دق باب منزله في هذا التوقيت وجاءه رجل غامض وطلب منه أن يلحن لحنًا موسيقيًا مناسبًا يمكن عزفه من أجل وداع الموتى، وبالفعل قَبِل ذلك من الرجل الغامض، والذي تقول إحدى الروايات بأنه كان يشبه والده كثيرًا، فشعر موتسارت بأنها رسالة من العالم الآخر تخبره باقتراب موعد رحيله، وما هذا القداس إلا لوداعه هو نفسه، حاول كثيرًا أن يُنحّي هذا الأمر عن تفكيره ولكنه

لم يستطع، فأصيب بالحمى والاكتئاب إلى أن مات بعد أن أنهى قداس الموتى مباشرة، دعك من التاريخ الآن، فالخواجة موتسارت لا يهمه إن كنت تعرف كيف مات أو لا.

حينها قال لي درويش أن أكون متماسكًا وألا أخاف أي شيء طالما هم بجواري، لم أعلق على كلامه لأنني تعرضت للكثير قبل ذلك، ولن يخيفني الأمر كثيرًا إن كان يتطلب مني الخوف، دلفنا إلى ممر طويل في أحد المنازل الريفية، كان البيت خشبيًا، وهذا أمر غير تقليدي، كما أنه على الطرف الآخر من القرية، في الحقيقة لم أكن أستطيع سماع أي شيء سوى عواء الكلاب التي شرعت في الظهور بمجرد أن اقتربت من هذه المنطقة، ولم أكن أستطيع رؤية أي شيء سوى الظلام، حيث كنا نسير على ضوء مصباح كيروسين ضعيف، وحول المنزل الوحيد لم يكن هناك شيء يستحق المشاهدة، سوى أنه على مستوى نظري أستطيع أن ألمح بعض القبور المتناثرة، بالتأكيد إنها لأهل القرية.

دلفنا سريعًا إلى غرفة كبيرة غير مضاءة، وهناك في أحد الأركان كانت هناك فتاة مربوطة، على ضوء المصباح الضعيف أستطيع أن أرى الأصفاد في قدميها، وكذلك أستطيع أن أرى أن كلتا يديها مربوطتان في حلقة حديدية مثبتة في الحائط، كان المشهد مثيرًا، ومحزنًا أيضًا، لم أكن أستطيع تحديد ملامحها أو عمرها، نظرت حولي إلى درويش والرجلين وكلي أسئلة.

اتجه أحدهم بحذر تجاهها وهو يحمل المصباح، ثم وضعه في وضعية أستطيع من خلالها رؤية الفتاة. وما أن لمسها الضوء حتى صرخت صراخًا متقطعًا مرعبًا، يشبه عواء القطط في الليالى الباردة الغامضة، واتضحت لي حينها ملامحها، كانت مفزعة، هالات سوداء حول عينيها، وعظام وجهها بارزة بشكل مثير وكأنها عائدة من القبور بعد قضاء فترة ليست طويلة هناك. كما أن جسدها نحيل بشكل مبالغ فيه. ناهيك عن يديها التي تشبه يديّ المومياء، وكذلك قدميها، كانت ترتدي فستانًا طويلاً لونه أبيض، أو هكذا كان لابد أن يبدو، لأنه كان متسخًا بشدة، ملطخًا بالدماء في أماكن متفرقة، وشعرها منفوش بشكل يشبه الجنيات في القصص التي يخيفون بها الأطفال.

وقفت مذهولاً للحظات لكنني لم أكن خائفًا، ليس لأنني شجاع بالقدر الذي يجعلني كذلك، ولكن وجود الأصفاد مع هؤلاء الرجال يجعلني أشعر ببعض الاطمئنان، اقتربت منها في حذر، كانت عيناها لامعتين بشكل غريب وكأنها مرايا انعكست عليها شمس الصيف، كانت تنظر لي نظرات حادة، حيث كانت تصرخ من لحظة لأخرى، محاولة بقدر الإمكان فكّ نفسها، ربما للقضاء علينا جميعًا، وقفت على بعد خطوة منها وهي تحاول ببسالة فك قيدها، ولم يتحرك جفن للرجال حولي وكأنهم اعتادوا ذلك المنظر، كنت مشفقًا عليها أكثر من خوفي منها، فهي تبدو أنها لم تتعدَ الثمانية عشر ربيعًا.

عدت مرة أخرى إلى درويش وقلت له بهدوء يقطع الصمت والصراخ:

من تلك الفتاة؟! وماذا حدث؟!

نظر لي نظرة طويلة لم تعنِ شيئًا، ثم اتجه نحو الباب وخرج وأنا بجواره، بينما بقي الرجلان مع الفتاة، وبصوته العميق قال:

إنها ابنة أخي رحمه الله، لقد حدث لها ما تراه ليلة فرحها، قُتل زوجها ليلة فرحهما بطلق ناري، أنت تعرف جيدًا مسألة الثأر المنتشرة هنا، أصبحت كالمجنونة بعدما حدث، وقد قلت في نفسي إن الصدمة في البداية، وتركنا الموضوع جانبًا، حتى جاء ذلك اليوم الذي أمسكنا بها فيه وهي في المقابر ليلاً، تحفر كالمجنونة وكأنها تنقب عن شيء ما، شيء لا نعلمه، أمسكناها وعدنا بها إلى البيت.

ساد الصمت للحظات وهو يتنهد تنهيدة طويلة، ثم استرسل في حديثه:

لا أعرف ماذا يحدث بالتحديد، ولكن كل ما نعلمه أنها اعتادت أن تذهب إلى القبور وامتنعت عن الأكل والشرب منذ مدة ليست بالقليلة، حتى إننا أحيانًا نجعلها تأكل غصبًا وتحت تهديد السلاح، هذا في البداية، ولكن كل طرقنا باءت بالفشل في الثلاثة أيام الأخيرة، ولذلك جئت لك ربما تستطيع مساعدتنا.

- ما اسمها؟!

- نوارة.

- لا يمكنكم أن تعاملوها بهذه الطريقة!

- إنها الطريقة الوحيدة للحفاظ على حياتها.

- ولكن بهذه الطريقة أنتم تقضون على ما تبقى من حياتها!

- أظن أني لم آتِ بك إلى هنا لتخبرني كيف أعامل أهل بيتي، الآن قل ماذا ترى؟ - كان صوته عميقًا مرعبًا في هذه اللحظات.

- إنها تمر بحالة انهيار عصبي إثر الصدمة، وهذا كل شيء، تحتاج لمصحة نفسية، لأنها تحتاج إلى مرحلة تأهيل نفسي وعناية طبية متكاملة، وليس لمجرد طبيب مثلي.

- إن الأمر ليس كما تتصور، إنها تقول إنها ميتة ونحن أعدناها من القبر، كما أنها تصرخ ليس بسببنا ولكن بسبب أن هناك من يناديها باستمرار لتأتي إليه، هي وحدها تسمعه، وأنا أصدقها تمامًا، فالعالم الآخر عالم كبير يا بيك، عالم أسراره كثيرة ومرعبة، إياك والاستهانة به، أريد أن أعلم الحقيقة ليستريح قلبي.

نظرت له طويلاً وأنا أفكر، كنت غارقًا في الكثير من الأفكار، كان صوت صراخها يأتيني في هذه اللحظات مدويًا ومؤثرًا أيضًا، حينما أفقت من غفوتي الفكرية لم أجده أمامي، نظرت داخل الغرفة فوجدته واقفًا في مواجهتها، طلبت منهم جميعًا أن يخرجوا من الغرفة وأن يتركونا وحدنا، نظر الرجلين لدرويش منتظرين الأمر منه بالانصراف، وبالفعل أمرهم بإيماءة منه بالانصراف، وحينما اقتربت منها وجدت درويش

مازال في الغرفة، فنظرت له نظرة تعني أن يخرج هو الآخر، وبالفعل خرج بعد تردد لم يدم طويلاً.

اقتربت منها ثم جلست على الأرض على مسافة لا تجعلها تنال مني، ثم قلت بعد أن شعرت بهدوئها:

إنهم يعتقدون أنك حية، أغبياء – وابتسمت ابتسامة خفيفة.

ثم صمتُّ للحظات وأنا أراقب رد فعلها، حيث كانت تنظر لي نظرات زائغة مرتعدة، ثم همست:

علينا أن نجد سبيلاً للخروج من هنا، سأنقذك إن أحببتِ ذلك، ولكن عليك أيضًا أن تساعديني.

نظرت إلى الجانب الآخر كقطة هاربة ولم ترد، ثم بدأت تئن بشكل ملحوظ، استرسلت مرة أخرى وأنا أقول:

العودة إلى القبر شيء صعب، ولن يستطيع أحد مساعدتك غيري.

كان صوت الأنين يزداد بشكل ملحوظ كلما تحدثت، وحينها قمت من مجلسي واتجهت إلى الخارج، كان درويش والرجال حينها يقفون خلف الباب تمامًا، أخبرته بأن عليّ العودة إلى المنزل، كما طلبت منه أن أزور منزلها ومن هم قريبون منها في الصباح، وعلينا أن نتحرك سريعًا، نظر لي درويش نظرات متشككة ثم دلف إلى حجرة الفتاة، فصرخت صراخًا مرعبًا، عاد درويش مرة أخرى وتقدمنا، بينما سرت أنا بجانب

الرجلين تحت ضوء المصباح على صوت عواء الكلاب الرهيب، وحين خروجي من المنزل لمحت رجلاً عملاقًا يحمل في يده مصباحًا، ينظر لي من خلال الضوء الضعيف نظرة نارية، كانت عيني ثابتة عليه، لم أقل شيئًا لأن الإجابة جاءت قاطعة من أحد الرجلين:

"إنه الحارس".

في المساء كنت أجلس وحدي في المنزل، كنت أستطيع ان أسمع العواء القادم من بعيد، كنت أيضًا لا أستطيع أن أداري صوت أنينها الذي مزق أذنيّ، ليس من عاداتي كما تعلم أن أتأثر بحالة مريض، ولكنني في الحقيقة أشفقت عليها، ماذا حدث لتصل إلى هذه الحالة؟! كان هذا هو السؤال الحقيقي الذي يجب أن أبدأ من خلاله لأستطيع فط طلاسم هذه الحالة الغامضة، وسرعان ما أتيت بأحد المراجع الفرنسية، تذكرته وبعد أن أنهيت القراءة جلست محدقًا في الفراغ محاولاً بقدر الإمكان الوصول إلى الحقيقة.

في الصباح كان هناك رجل صاحب شارب كث وذو بنية قوية، يقف في بهو المنزل حينما صحوت من على أريكتي التي نمت عليها جالسًا دون أن أشعر، نظرت له طويلاً محاولاً تجميع فكرة مقبولة، ولكنه قاطع أفكاري وهو يحدق بي بنظرات بلهاء:

"أنا عبد الصمد يا بيك، تركني الحاج درويش من أجل خدمتك".

أومأت برأسي دون أن أنطق وقد كنت أشعر بصداع شديد، خرجت معه بعد أن تناولت إفطاري وقرص مسكن لهذا الصداع الغريب، طلبت منه أن يأخذني إلى منزل نوارة، وبالفعل اصطحبني إلى هناك، لم يكفّ عن الحديث عن أمور تافهة تخص الموتى وبعض القصص الأسطورية التي اشتهر بها أهل الصعيد عن النداهة والعفاريت، لم أسمع منه حكاية كاملة لأنني كنت شاردًا.. شاردًا جدًا.

وصلت إلى منزل نوارة ولم يكن هناك أحد تقريبًا سوى امرأة طاعنة في السن، ترتدي ثوبًا طويلاً شديد السواد، تحزم رأسها بشال أسود على الطريقة الصعيدية، وتجلس في هدوء وكأنها تسبح في عالم آخر، كان ذلك واضحًا لأنها على ما يبدو لم تنتبه لقدومي، نظرت إلى المنزل نظرة طويلة متفحصة، ربما أجد شيئًا أبدأ منه، ولكن بلا جدوى، لم أجد ثمة شيء، منزل عادي جدًا، جلست بجوار المرأة التي غطت عينها اليمنى سحابة، فبدا لي أنها لا ترى بها، ثم قلت:

كيف حالك يا حاجة؟!

ابتسمت ابتسامة رائقة لم أرَ مثلها أبدًا من قبل، ثم قالت بصوت امرأة عجوز شمطاء خربها الزمن: كيف تسألني عن الحال والنور غايب يا ولدي؟!

لم أفهم معنى ما ترمي إليه، ولكنني قررت مجاراتها إلى النهاية، فمن هم في مثل عمرها لديهم خبرة وأسرار قد لا نتخيلها على الإطلاق.

- وكيف النور غائب ونور الرحمن موجود؟!

- نورها من نور الرحمن.

- من هي يا حاجة؟!

- نوارة.

أخذت نفسًا طويلاً بعد وقع كلمة نوارة على مسامعي، وهنا اشتعل فيّ أمل غريب، نظرت للرجل الواقف والمتابع للحوار، ثم أخبرته بأن يجلب لي شايًا، تردد قليلاً، ولكن بعد نظرة حادة مني اتجه فورًا لجلب الشاي، في الحقيقة لم أكن أريد شيئًا سوى الانفراد بهذه المرأة التي علمت فيما بعد أنها جدة نوارة التي ربتها.

- ماذا حدث بالضبط لنوارة؟!

لم تنطق بكلمة واحدة، ولم يبدُ عليها أي نوع من الانفعالات، بل ظلت ناظرة أمامها دون أن تجيب، ثم قلت لها: أنا دكتور كمال الشريف، جئت لمساعدة نوارة!

- ربك وحده القادر على مساعدة نوارة.

- ولكن لن يساعدها دون أن نمد يد العون لها، إن الله لا يساعد من لا يساعدون أنفسهم.

لأول مرة تنظر لي نظرة طويلة ذات مغزى، نظرة مرعبة ومتشككة، ولكنها انتهت بوجه رائق وكأنها وجدت شيئًا، ثم نكست رأسها ببطء وكأنها تفكر، ثم قالت: "ابحث خلف الموتى".

نظرت لها طويلاً وأنا لا أفهم ما تعنيه بالتحديد، وحينها جاء الشاي ساخنًا كسخونة الأفكار في رأسي، ثم نظرت أمامى سارحًا، كانت رائحة الموت تدغدغ أنفي في هذه اللحظات، ثم همست لها بشيء ما، فنظرت لي لوهلة ثم أومأت برأسها إيماءة خفيفة لا يستطيع أحد ملاحظتها بسهولة، ابتسمت وانصرفت دون أن أشرب الشاي.

اتجهت إلى منزل درويش رغم إصرار الرجل المرافق على منعي، ولكنه في النهاية انصاع لأمري وإلحاحي وتهديدي المباشر أيضًا، وهناك لم أجد شيئًا، كان البيت غريبًا، متواضعًا جدًا على عكس المنزل الذي أمكث فيه، لم يكن هناك سوى فتاة صغيرة في الرابعة عشرة من عمرها، كانت غير مهندمة، تنظر لي بعيون طفلة بريئة، لأول مرة تقريبًا في حياتها ترى رجلاً غريبًا، سألتها بهدوء عن درويش، فأجابت بهدوء: "سيدى ليس هنا"، لفت انتباهى رائحة منفّرة جدًا عند خروجي من الباب، فلاحظت وجود سرداب أسفل المنزل، ولكن حين محاولتي النزول وقف أمامى الرجل وكانت عيناه تشعان شرًا، في الحقيقة لم أتكلم كلمة واحدة وانصرفت في الحال.

عدت إلى المنزل بلا شيء، ولكن إن فكرت جيدًا، سأجد أن هناك شيئًا غامضًا يدور في هذه البلدة، وهذا الشيء مرتبط بشكل ما بدرويش

هذا، تلك الشخصية التي تقترب بشدة من الشخصيات التي طالما تحدثت عنها أساطير الغموض، ولكن دعك من هذه السخافات، ربما الجو العام ما جذب لي تلك النظرة، فنحن نرى فقط ما نؤمن به، ولكن أنا مستعد تمامًا الآن لخوض هذه المغامرة، مستعد بشدة.

في الليل كنت أرتدي جلبابًا، ولأنهم أخبروني بأن درويش لن يعود إلا باكرًا؛ قررت أنه الوقت المناسب لتبدأ مغامرتي بالشكل المناسب. اتجهت في الظلام الدامس تجاه منزل درويش، لم أكن أسمع سوى صوت الضفادع ونباح الكلاب وهسيس الأشجار، وبعض الأصوات المفاجئة في ترعة البلد، لن تكون جنية بالتأكيد، فهذا ليس بالوقت المناسب. دلفت بسهولة إلى داخل البيت من خلال تسلقي لشجرة في فناء الدار مجاورة لإحدى الشرف في الطابق الأول، كنت مازلت محافظًا على رشاقتي، لم أسمع ثمة صوت، كان البيت هادئًا كقبر بارد، أغلقت الشرفة بهدوء، وربما كان ذلك خطئي الوحيد، واتجهت مباشرة تجاه القبو في الدور الأول، لم يقابلني شيء ولم أسمع صوتًا، وتأكدت من أن المنزل خالٍ تمامًا من كل شيء.

كان يجب أن أتوقف حينما رأيت ذلك النور الخافت في ركن القبو، وعدت خطوات للوراء وأنا أنظر متلصصًا إلى ما يحدث في الأسفل، كان صوتًا يشبه فحيح الأفاعي، وشوشة سريعة ولكنها واضحة أيضًا، نزلت سلمة جديدة لأستطيع أن أرى المشهد كاملاً، كان درويش يجلس على أريكة كبيرة، الإضاءة الخافتة تظلل وجهه فبدا مرعبًا، كانت عيناه

نافذتان، يمسك في يده إبريقًا صغيرًا، ويصب به على شيء ما لا أستطيع أن أراه بوضوح، وبعد محاولات كثيرة لتبين الأمر عرفت أنها الفتاة التي قابلتها في الصباح، هنا في هذا المنزل، كانت عارية تمامًا بينما اتضح لي اللون الأحمر القاتم الذي يغسل معظم جسدها، هل ما أراه صحيح؟! أم إنها تلك الرؤى المرعبة التي تباغتنا في الظلام؟! نعم إنها صحيحة، هناك شيء غامض يجري هنا.

عدت إلى الوراء حينما نظر درويش فجأة إليّ مباشرة وكأنه رآني، عدت وقد انحبست أنفاسي وتسمرت وظهري إلى الحائط، أتنفس بصعوبة بالغة، سمعت وقع خطواته بعد لحظات، هرولت مسرعًا تجاه الشرفة التي أتيت منها، لا يمكن استخدام الباب في الظلام، ما أعرفه خير ألف مرة مما لا أعرفه، فتحت الشرفة بهدوء، تحوّل وقع الخطوات إلى هرولة، حينها قفزت تجاه الشجرة، وتواريت بين أغصانها الكبيرة، كنت أراه جيدًا من مكاني هذا وهو ينظر بعمق في الشجرة، كأسد يبحث عن فريسته بين الأعشاب، صوت أنفاسه يثير هلعي، نظراته الحادة تكاد تخترقني، ثم بهدوء أغلق الشرفة، تنهدت تنهيدة طويلة، ثم نزلت من على الشجرة وهرولت إلى المنزل.

لم يخب ظني، لأني بمجرد وصولي سمعت صوته وهو يدخل من الباب، نمت بسرعة بملابسي على الأريكة وغطيت نفسي بغطاء، وادعيت النوم، بل وشخرت أيضًا، وهذه ليست إحدى عاداتي أثناء النوم، كانت أنفاسه تقريبًا تلامس وجهي وهو ينظر لي، عليك أن

تتخيل ما كان يدور في عقلي، وما شعره قلبي في هذا التوقيت، لن أتعجب إن شعرت بسكين يخترق جسدي عشرات المرات لأودع هذه الحياة، أو ربما لتفصل رأسي عن جسدي، ولكن هذا لم يحدث، لأنني أقص عليك هذه القصة الرهيبة الآن كما تعلم.

حينما تأكدت من خروجه من المنزل، أصبحت على يقين أن فك أحجية درويش هو الملاذ الوحيد لإنقاذ نوارة والفتاة الأخرى. جلست على الأريكة بعد أن جئت ببعض الأوراق وبدأت في تدوين بعض الأشياء، وفي الصباح ذهبت إلى جدة نوارة وأعطيتها ورقة، وطلبت منها أن تساعدني. لم تُجب ولكنها أخذتها وهذا يكفيني، لأنها بذلك أعلنت الموافقة.

اتجهت سريعًا إلى منزل درويش لأجده جالسًا والفتاة، كانت تجلس على الأرض أمامه، ابتسم لي وهو يقول: "تعال يا دكتور".

لأول مرة أراه يبتسم، وهذا في الحقيقة شيء لا يُطمئن على الإطلاق، ثم أخبرني بهدوء وبلا مقدمات: "لقد ماتت نوارة، وجدناها ميتة هذا الصباح، ما باليد حيلة، أعتقد أنها رُحمت مما كانت فيه، الآن يمكنك أن تذهب ولكن إن أحببت أن تقضي معنا وقتًا، فأهلاً وسهلاً بك".

لم أفهم شيئًا مما قاله، ولم كان مبتسمًا؟! هل كان ينتظر موتها؟! وإن كان الأمر كذلك فلم كلف نفسه هذا الطريق الطويل ليأتي بي من

القاهرة؟! ولم لا يظهر عليه الحزن إن كانت نوارة فعلاً ماتت بجانب أنها تهمه؟! عزيته وانصرفت، ثم أخبرته أنني سأغادر غدًا بكل تأكيد.

وأنا في طريقي إلى المنزل متأملاً ما حدث، سمعت أحدهم ينادي عليّ، عن طريق حركة يستخدمونها للنداء على القطط "البسبسة"، لم يكن هناك شخص في الجوار سواي وأنا أسير بين الأراضي الزراعية، ولكنني لم أر ثمة شخص، ولكن عادت "البسبسة" مرة أخرى، فنظرت حولي منتبهًا، فوجدت إحداهن، تنظر لي من بين فروع الذرة الطويلة المزورعة، وهي تقول "تعال"، فكرت لوهلة ولكنها لم تكتمل، لأنني وجدت نفسي دون إرادة أتجه نحوها، وغصنا بين عيدان الذرة، كان يبدو عليها الهلع، صعيدية المظهر، صغيرة، ربما في العشرين أو أقل قليلاً.

أنت الدكتور الذي جاء من مصر؟

نعم، ماذا تريدين؟!

نوارة اللي جننها عمها!

لا أفهمك.

عمها درويش ساحر، كل الناس تخافه بشدة لأنه قادر على أذيتهم، نوارة كانت صاحبتي، لم نفترق يومًا، وكانت تحب زوجها الذي قُتل بشدة، وبالتأكيد من قتله عمها لأنه رفض الزواج، ولكنها أصرت

بشدة، وبعد إصرار شديد منها وافق بشكل غريب، حتى إنها لم تصدق أنه وافق، وجاءت الليلة المنحوسة، حيث أصيب بطلق ناري في قلبه، ومن بعدها تبدلت أحوال نوارة، أصبحت تخبرني بأنها تشعر بصداع رهيب في الليل، وتشعر بأن أحدهم يناديها ويهمس لها بشكل مرعب، وأحيانًا تصحو وعلى جسدها علامات لا تفهمها، وشيئًا فشيئًا امتنعت عن الكلام والأكل، واختفت ولا أدري أين ذهبوا بها، وجدتها لا تفيد في شيء، لا أمل لي غيرك.

هل كانت تقول شيئًا معينًا قبل أن تمتنع عن الأكل والشرب والكلام؟

نعم، كانت تتحدث بشكل غريب عن الموت، وكانت تقول إنها ميتة، مكتئبة طيلة الوقت، لا ترى في الحياة شيئًا يجعلها تفرح، كنت أراها ميتة في الحقيقة، حتى إن ما حول عينيها تحول إلى لون قاتم مرعب، أرجوك حاول أن تنقذها.

لم أُرد أن أخبرها بموتها لأنني لم أصدقه من الأساس، ولكنني اكتفيت بما سمعت، وقررت قرارًا في نفسي، وسألت الله والأرض والسماء، وكل شيء أن يساعدونني عليه، وأخرجت ورقة صغيرة وقلمًا وكتبت شيئًا، ثم أخبرتها بأن تأخذ هذه الورقة وتسلمها للجهة المدونة عليها سريعًا، أخذتها وتركتني كالفراشة، اتجهت إلى جدة نوارة وسألتها عن الورقة، فوجدتها معها كما هي، أخبرتها بأن تفعل بها ما طلبت، نظرت لي فوجدت الصدق، ابتسمت لأول مرة وأومأت برأسها، فرحت كثيرًا وانطلقت في طريقي.

قمت بالتأكد من حقيبتي ومن جميع أشيائي، وتأكدت من أنني جاهز للسفر. جاءني درويش وكانت الساعة وقتها تدق التاسعة مساءً. في الحقيقة في هذا التوقيت، وفي قرية في الصعيد، تشعر وكأن الفجر قادم خلال دقائق، البلدة كلها في سبات عميق، سبات مرعب إن سألتني عن رأيي، وحينما رأى مني أنني بالفعل انتويت الرحيل. سلّم عليّ وقال بلهجة غريبة: اعتنِ بنفسك.

نظرت له نظرة طويلة نافذة لأول مرة، شعرت لأول مرة بأنه مهزوز، ولكنه انطلق في طريقه خارج المنزل ومعه الخفير المرافق، الذي ساعدني في صباح ذلك اليوم.

كان الظلام دامسًا، لم أكن خائفًا كالمرة الأولى، ولكن دعنا لا نستثنيه أبدًا، فهو حاضر دائمًا في كل مكان أذهب إليه. كنت في طريقي إلى المنزل الذي توجد فيه نوارة، لم يكن هناك ثمة شيء، ولا حتى الحارس الرهيب الذي رأيته حينما جئت إلى هنا في مرتي الوحيدة، كنت أدعو الله أن يساعدني، وثبت حتى أصبحت داخل المنزل الهادئ، وتوجهت إلى الغرفة التي توجد بها نوارة، وضعت أذني على الباب فلم أسمع شيئًا يُذكر، كان صرير الباب مسموعًا ومرعبًا، صدى صوته في أركان ذلك المنزل الخالي من الحياة، بل من كل شيء؛ كان له أثرًا خانقًا، وجدت درويش في مواجهتي تمامًا وكأنه ينتظرني، وكانت نوارة منبطحة على الأرض والدماء تسيل منها، بينما الشرر يتطاير من عينيه، ووجدت أيضًا جدتها وقد جحظت عيناها، لا توجد طريقة أخرى لتتعرف بها

على الموتى، فهذه العينان وذلك الجمود الناتج عن رعب شديد، يبرهن ويثبت أنها ماتت ميتة بشعة على يديّ هذا الوحش.

لم يكن هناك سوانا، جثة، جثة حية أو ربما ماتت هي الأخرى، وأنا ودرويش.. ولكن بالتأكيد الباقون في مكان ما، نظرت له محاولاً ألا ادع مجالاً للخوف لينال مني، وهنا سمعته يقول:

كنت أعلم بأنك ستأتي يا دكتور كمال، ولقد جئت لأنتظرك، فأنت رجل لا يُهزم بسهولة، لقد جئت بك إلى هنا لأثبت لنفسي تفوقي على علمك، أترى يا دكتور كمال؟ هذا جزاء من يحاول العبث معي، نهايته كما ترى، الموت..

ماذا تريد بالضبط يا درويش؟ ولماذا تفعل كل ذلك؟!

لا مكان لمن يعصيني، أحولهم لأحياء موتى!

حتى ابنة أخيك، حولتها لجثة حية، هذا ما أردته، وجئت بي إلى هنا لتثبت عجزي أمام سحرك الأسود، ولكن ما لا تعلمه بأن حيلك تلك أثرت فيها نفسيًا فقط، ويمكن أن تعالج مما هي فيه، الشكل الدرامي الذي خلقته لها عن حبيبها الذي يناديها من القبر، إحساسها الموحش بفعل ما تستخدمه من سحر لتطاوعك؛ كل ذلك سيُعالج.

من قال يا دكتور إنها ستُعالج؟ هي ستدفن اليوم، وكذلك أنت.

حاولت الهرب ولكن كان هناك رجلان لي بالمرصاد، أمسكا بي بقوة، بينما كان درويش ينظر لي مبتسمًا ابتسامة انتصار رهيبة، حملوني أنا ونوارة إلى القبور، وهناك كانت حفرتان وكان ذلك الحارس العملاق يمسك بمجرفة يدوية، يبتسم كلما نظر لي ابتسامة مرعبة، وقف درويش وهو يتلو شيئًا لا أعرفه، كلمات لا أفهمها ولكنه يقولها بحماس شديد، وبصوت مسموع أجش مفزع، شعرت برجفة في جسدي، وبخوار قواي، ولكنني تماسكت وأنا أصيح بأن ينقذني أحد، بينما كنت أرى صدر نوارة الوهن وهو يعلو ويهبط بشكل بطيء، وهذا ما دفع الدم في عروقي وأعطاني رغبة صارخة في الحياة.

سمعت طلقات نارية تدوي، وأحدهم يصيح من مكان ليس ببعيد، وعرفت حينها أنها الشرطة، كان يجب عليّ أن أسلم ورقة أخرى لصديقة نوارة، لأني كنت أعلم أن المرأة العجوز محاطة بالوشاة والجواسيس الذين سيعرفون الحكاية كاملة، أنها تحاول مساعدتي وتحدي درويش، ولكن لم أتخيل أن يكون العقاب على هذه الشاكلة، الموت عقاب طبيعي لمن يخالف ذلك الدرويش.

أُخرجت البنادق، بينما همّ درويش بسحب نوارة على الأرض وقذفها داخل حفرة، ارتطم جسدها بقوة داخلها، بينما صوب بندقيته تجاهي، ولكن باغتته طلقة نارية في توقيت أكثر من مناسب في كتفه، فخرجت الطلقة من بندقيته لتخترق صدر الحارس الضخم، لكم كنت أتمنى له الموت، سفير جهنم هذا، لم أدر ما حدث بالظبط لأنه أغمي عليّ، وعرفت بعدها بأن أحدهم ضربني بقوة على رأسي ببندقيته،

ولكن حمدًا لله، أنا أجلس الآن في قسم الشرطة أمام ضابط صغير السن له عينان تضخان ذكاءً وشبابًا وتطلعًا.

حمدًا لله على سلامتك يا دكتور كمال، لولا أننا جئنا في الوقت المناسب لكنت في عالم آخر الآن، الرسالة التي أرسلتها مع تلك الفتاة جعلتني أراقبك من بعيد، لأنني منذ فترة طويلة وأنا أراقب درويش وأعلم تمامًا ما يفعله، ولكن للأسف هنا في الصعيد لا أحد يتكلم، فالخوف من الشيطان أشد من الخوف من رجال الشرطة.

أومأت برأسي وأنا أتحسسها بإحدى يديّ، ثم قلت:

هل مات؟!

هؤلاء لا يموتون بسهولة.

وماذا عن نوارة؟!

أدعو الله أن ينقذها، إنها في المستشفى الآن تحت حراسة مشددة، ولكن مازالت الحياة تسري في جسدها الضعيف.

إنها مسكينة، ولا ذنب لها فيما حدث سوى أن عمها شيطان، لقد أصيبت من القهر وأفعاله الماجنة تلك بمرض خطير.

انتبه لي وهو يقول:

وما نوع هذا المرض؟!

وهم كوتارد، أو متلازمة كوتارد، أو متلازمة الجثة الحية.

لم يفهم شيئًا، فاسترسلت في حديثي قائلاً:

لقد قام درويش بإقناعها عن طريق سحره بأنها ميتة بالفعل، لذلك كانت تذهب كل مساء لتبحث عن قبرها، هكذا يحدث لتلك الحالات التي بلغت منطقة متقدمة من هذا المرض، فهم يرفضون حتى الاعتراف بوجودهم في هذه الحياة، ويتخيلون أنهم خواء، ولا يوجد داخلهم أعضاء، هو اضطراب نفسي نادر، المصابون بالمتلازمة يكون لديهم اعتقاد وهمي بأنهم أموات (اصطلاحًا أو فعليًا) وأن جثثهم قد تحللت أو تعفنت، أو أنهم فقدوا كل كميات الدم في جسمهم، أو فقدوا عضوًا حيويًا (أي إنهم لا يمتلكون أجسامًا، فقط أرواح) وفي حالات متقدمة من المتلازمة يمكن أن يعتقدوا بأنهم مخلدون. ولكنها لم تكن قد بلغت بعد هذه المرحلة، وهذه ما تسمى المرحلة الأخيرة.

كما أن المتلازمة سُميت بهذا الاسم نسبة إلى العالم الفرنسي "جوليس كوتارد" Jules Cotard، وهو عالم الأعصاب الفرنسي الذي كان أول من يصف هذه الحالة، والتي وصفها بـ "le délire de negation" الوهم من اللاواقعي، في محاضرة في باريس عام ١٨٨٠. وصف جوليس المتلازمة بأنها تتكون من عدة درجات من الحدة، تبدأ من الدرجة المعتدلة وتنتهي بالدرجة الحادة الخطيرة في بعض الأحيان. الكآبة وكره الذات تُعد من الصفات التي تظهر في الحالة المعتدلة، أما الحالة الخطيرة فوصفها بأنها تتصف باضطرابات وتوهمات شديدة وكآبة مزمنة، في إحدى محاضراته وصف كوتارد مريضة أعطى لها الاسم

"X Mademoiselle" بأنها أنكرت وجود أعضاء داخلية عديدة ورغبتها للأكل، وفيما بعد ظنت أنها "ملعونة للأبد"، وأنها لن تستطيع أن تموت ميتة طبيعية. لاحقًا ماتت المريضة من الجوع.. وأعتقد أن هذا ما حدث مع نوارة إثر ما كان يفعله عمها بها باستخدام العنف والسحر، كما لاحظت أنه يمارس ذلك أيضًا مع الفتيات في القرية، ويعلم الله وحده السبب، ولكنني أعتقد بأنه يستخدم عظامهن بعد أن تتحلل جثثهن في أعماله الشيطانية، فإن عظام الفتيات العذراوات لها أثر قوي في السحر، كما يعتقد العديد من مستخدمي السحر حول العالم كله، نوراة ستكون بخير إن شفيت من جراحها، ولكنها تحتاج لعناية تامة.

نظر لي طويلاً مندهشًا، ثم قال:

هو متهم لدينا بالقتل والخطف ولن يفلت من العقاب، وفي النهاية أشكرك جدًا يا دكتور كمال، لقد كنت عونًا قويًا لنا في هذه المهمة الصعبة الخطرة.

شكرته وانصرفت، ووعدته بأن أتابع نوارة في مصحة خاصة بعد شفائها.. كنت في طريقي في الصباح مستقلاً القطار، أجلس في هدوء وحيرة، أفكر فيما حدث، أفكر بشكل أقرب ما يكون إلى الانفصال عن الواقع، لم أكن أشعر بجسدي تمامًا وكأنه خواء.. لم تكن لدي رغبة في أكل أو شرب ثمة شيء، ولا في الحياة نفسها، كنت أشعر بكآبة غريبة ورغبة في زيارة أبي في مرقده الأبدي، نعم كانت لدي رغبة شديدة في الموت.

العذراء

The Virgin

أتذكر بدر السيوفي، رجل المباحث، ذلك الرجل المتجهم دائمًا بسبب وبدون سبب. أتعجب أحيانًا منهم، فهل لابد أن ترتبط تلك الصفة بهم لكي يثبتوا أنهم رجال أكفاء؟ أعتقد أنهم جميعًا كذلك على مستوى العالم بأسره، "لكي تصبح رجل شرطة، عليك أن تكون متجهمًا، قاسي الملامح". دعك من كل ذلك، إنه يقف الآن على باب مكتبي بعدما عدت من زيارة لفرنسا سأقصها عليك فيما بعد، فهي شيقة للغاية لا تخلو من حس الفكاهة الذي طالما افتقدته بين حكاياتي الغريبة، التي تصلح لأن تكون مسلسلاً يضخ الدماء في العروق من فرط الفضول لمعرفة أسرار عالم المجانين والمجرمين بالفطرة.

كان مبتسمًا، أعتقد أن هناك نتوءًا على جانبي وجهه، أو أنني أتخيل كعادتي صفات أتمناها في شخصيات ما بعينها، فبدر السيوفي لا يبتسم، اقترب مني ببرود مفرط وهو يقول: "أعتقد أننا نحتاجك يا صديقي بشدة هذه المرة، لقد غبت علينا كثيرًا".

رحبت به على غير عادتي بعد أن تحولت خيالاتي إلى واقع غريب، وبعد دردشة لم تستمر طويلاً، وكعادته الجدية في الدخول في المواضيع بدون مجاملات، قال وهو يشعل سيجارة من نوع "مالبورو أحمر":

- إنها في الثانية والعشرين من العمر، تملك جمالاً لا بأس به، يمكنك القول بأنها بالفعل جميلة، متهمة في جريمة قتل، وقد تكون متهمة في جريمة قتل أخرى.

لم أتبين بالتحديد موقع كلماته الأخيرة ولكنني كتبت شيئًا أمامي بسرعة قبل أن تتآكله أفكاري اللاحقة، وبدوت مشدوهًا الآن بعد الجملة الأخيرة تمامًا، بينما استرسل يقول وهو ينظر بهدوء في عينيّ:

- لا أخفي عليك يا صديقي، فالقضية معقدة ولأول مرة في حياتي أقف بجانب القاتل!

ماذا يحدث هنا؟! بدر السيوفي بنفسه يتنحى عن كونه الجلاد لأول مرة، لا يمكن أن يكون بدر السيوفي واقعًا تحت أسر الجاني في قضية كهذه، ولا يمكنني أيضًا التكهن بثمة شيء قبل أن تكتمل تلك اللوحة الخلابة التي سأضيفها بكل تأكيد إلى معرض مغامراتي، فكرت في نفسي..

- لا تفكر كثيرًا، فالقضية برمتها غامضة، ولا يوجد دليل واحد ضدها، رغم أن زوجها الثاني قد تم قتله بعد أن تمّ التخلص من عضوه الذكري!

شعرت برعدة قوية تسري في جسدي، فأنا أخيرًا رجل، ومجرد تخيل شيء كهذا يجعلنى دون إرادة أتحسس الشيء الوحيد الذي لم أستخدمه حتى الآن، ولكنه يبقى علامة واضحة على ذكورتي وليس رجولتي بكل تأكيد، فليس كل من يحمل عضوًا ذكريًا رجل بكل تأكيد.

- وتمت العملية بهدوء لأننا لم نجد أي آثار في جسد المجني عليه البالغ من العمر ثلاثين عامًا، ولكن وجدنا أنه تناول

المنوم قبل الحادث بربع ساعة، ولكن من تحرياتنا اكتشفنا أنه يتناول المنوم بانتظام.

- صديقي، أنت تحتاج لمخدر قوي لفعل شيء بشع كهذا، أرجوك كن دقيقًا، هل تم قتله أولاً أم...؟
- لقد تم قتله أولاً وهو مسجون داخل أحلامه الأخيرة.
- تقصد كوابيسه الأخيرة.

تجهم بدر السيوفي، ها قد عاد بدر السيوفي الذي أعرفه، ثم قلت وأنا أدون شيئًا أمامي:

- أتقصد أنها زيجتها الثانية وهي مازالت في هذا السن؟!
- نعم، لقد مات زوجها الأول بعد الفرح بأسبوع واحد فقط، وجدوه ميتًا في فراشه، وقد تم دفنه في الحال.
- لا أفهم.
- أعتقد أن زوجها الأول لم يمت ميتة طبيعية.
- أتعني أنها...؟!
- المشكلة أن الخيوط ضائعة، فهي لا تتكلم على الإطلاق تحت أي ضغط، هي صامتة تمامًا، وكأنها تجوب في عالم آخر، وهذا ما دفعني للقدوم إليك، فإن كانت فعلت ذلك تحت ضغط ما أو مرض نفسي أجهله، فأنت الخبير الوحيد الذي يمكنه أن يساعدها، ولأن حدسي هذه المرة بشأنها لا يمكن أن يكون خادعًا، فهي بريئة بشكل أو بآخر.

بعد اعترافه الصريح بموهبتي وعلمي، عدت للخلف وأنا أضع ركبتي فوق الأخرى، وأخذت وضعية برنارد شو وهو يشرح نظرية أن الحب يقودنا دائمًا ضد مصلحتنا، بينما قال:

- سأطلعك على كل المعلومات وسأقوم بتسهيل كل شيء تطلبه، ولكن دعنا لا نضيع الوقت.

ابتسمت لصدقه الشديد في إنقاذ متهم، واحترمته بشدة في هذه اللحظات، بدر السيوفي الضابط والجانب والإنساني منه يتصالحان لأول مرة.

وقفت في غرفته وأنا أنظر بهدوء إلى الملف أمامي، لم يذكر هنا أشياء كثيرة تهمني كطبيب نفسي، كل ما جدّ هو مجرد معلومات شخصية. الاسم: سارة عبدالهادي، خريجة كلية صيدلة، الأولى على دفعتها، تزوجت لأول مرة في عامها العشرين في السنة الأخيرة من دراستها، وأصبحت أرملة بعد مرور شهر من زواجها، ابنة لأسرة متوسطة الحال، والدها يعمل مندوبًا في شركة أدوية خاصة، والأم متوفية، لها أختان أصغر منها، لم تتزوج إحداهن، ولم تتم خطبتهما أيضًا، والسبب معروف، فإن الأخت الكبيرة قاتلة، وإن لم تكن كذلك، فيكفى في مصرنا الحبيبة أن يتم اتهام إحداهن بأبسط جريمة لتصبح بعد ذلك موصومة بالعار، هي وجميع من تعرف.

نظرت إلى بدر السيوفي وأنا أحتسي قهوتي المريرة، نظرت له في هدوء ثم قلت:

- هل يمكنني أن أراها؟!
- تقصد سارة؟
- نعم بالتأكيد، ولكن لا أريدك أن تخبرها بأنني طبيب نفسي.

أومأ برأسه، وبعد أن أعطى تعليماته دخلت سارة، كنت في هذا الوقت أنظر للملف الموضوع أمامي، محاولاً بقدر الإمكان الحصول على تفاصيل مهملة قد تفيدني في قضيتي هذه، حينما رفعت وجهي لم أجد سوى وجهًا ملائكيًا، نعم لم يكذب بدر السيوفي، لا ألومه على الإطلاق في أن ينحاز لها ويجزم ببراءتها، فهي قصيرة القامة، صغيرة الحجم، صاحبة وجه دائري أبيض، نضرة الملامح إذا ما أزلنا ما تُلاقيه من أهوال بين جدران السجن الاحتياطي، وأضف إلى ذلك الحالة النفسية التي وصلت إليها، لا أستطيع أن أنتشل عينيّ من أمام عينيها اللوزتين الرقرقاتين كبلورة لامعة.

تنهدت تنهيدة خفية وأنا أشكر الله أنه يرسل لنا الملائكة في صورة بشر، ولكن الملائكة لا يقتلون، هذا شيء أكيد، ولكن من قال هنا إن سارة ملاك؟!

أجلسها بدر السيوفي بهدوء وهو ينظر لي نظرات أفهمها جيدًا، ثم اتخذ مكانه ثانية في مواجهتنا، حيث كانت سارة تجلس على الكرسي المواجه

لي تمامًا، لم تكن تنظر لنا كما قال بدر السيوفي، كانت تنظر إلى عالم لا نراه بكل تأكيد.

ابتسمت بمودة رغم علمي أنها لا تراني، ثم قلت:

"سارة، أنا هنا لكي أسألك بعض الأسئلة البسيطة، لن أرهقك، كوني على يقين من ذلك، وصدقًا أنا هنا لمساعدتك، أنا أعلم أنك مثقفة وواعية، وكل ما أريده هو إجابة بعض الأسئلة إن سمحتِ لي حتى ننتهي من هذه الفوضى التي أصابت حياتنا، كل هذا السخف سينتهي بمجرد أن تجيبي عن أسئلتي" وأنهيت كلماتي بابتسامة.

لم تنظر لي، بل إنها ربما لم تسمعني، ربما أنها لا تسمع شيئًا على الإطلاق، زوج مقتول في سريره، ليس مقتولاً فقط، بل تم تجريده تمامًا من صفة الذكورة، وهي أول من تكتشف ذلك بعد عودتها إلى المنزل، رغم تأكيد الجيران والبواب أنها لم تخرج هذا اليوم من المنزل، العروس التي قتلت العريس، عنوان ملتهب يكفي أي جريدة لتبيع طبعاتها الثلاث في غمضة عين.

حاولت كثيرًا بعد ذلك أن أجعلها تتحدث، في الحقيقة وفي جزء مني شعرت أنني أبحث في منطقة نائية، ليست هذه المنطقة التي يجب البدء منها، ابتسمت لها أخيرًا وأدرت رأسي لبدر السيوفي معلنًا عن خلو جعبتي، ليس نفاد صبري بكل تأكيد، ولكنني أعلم النتيجة مسبقًا، فلا بأس من المحاولة.

انتهى اللقاء، وبعد أن وافق بدر السيوفي على إعطائي الملف لثقته فيّ، اتجهت سريعًا إلى منزل سارة الذي يقع في عين شمس من المنطقة الشرقية، بالتحديد في نهاية شارع أحمد عصمت، يمكنك الآن أن تتخيل الأمر، صعدت بعض درجات السلم، وقفت بجوار الباب، أخذت نفسا طويلاً، طرقت الباب، فتحت لي صبية لا يتعدى عمرها ١٧ عامًا.

دلفت إلى داخل المنزل بعدما اقتنع عبد الهادي والد سارة بأنني أحد رجال المباحث وقد جئت للتحقيق معهم، تعجب قليلاً لأنه سبق لهم الإدلاء بأقوالهم، كما أن المباحث لا تأتي لأحد، وإنما يتم استدعاؤهم كما هو الحال المتبع في الأمور التي تشبه ذلك.

كان منزلاً مصريًا بسيطًا لأسرة متوسطة، كما تتخيلون، جلست وأنا أحتسي قهوة لا بأس بها، كنت أنظر حولي باهتمام بالغ وكأنني أبحث عن شيء ما، في الحقيقة كنت أشبه بصياد ينتظر مجرد إشارة من فريسته، لاحظت أنه لا توجد ثمة صور في المنزل بأكمله وهذا شيء أثار انتباهي، لم يكن ثمة شيء معلقًا ماعدا سورة الصمد مكتوبة بخط أندلسي ومعلقة على الحائط المواجه لي في الصالة الصغيرة، وعلى منضدة مقابلة لي، كان هناك القرآن الكريم، لم ألاحظ وجود ثمة تلفاز، كما أن الفتاة التي قابلتني كانت ترتدي خمارًا يغطيها من رأسها إلى أخمص عينيها، وكأنها راهبة وهبت نفسها للعبادة، ولكن هذا أمر

طبيعي، فالأسرة ملتزمة بعض الشيء، وهذا أمر يتنافى مع وجود مجرمة من هذا المنزل حتى الآن، ولكن دعنا لا ننخدع بالمظاهر.

- هل كانت سارة ابنتك على علاقة بأحد قبل زواجها الأول، كالحب مثلاً؟!
- أستغفر الله العظيم يارب، سارة ابنتي محترمة جدًا، ولا يمكن أن تفعل ذلك، فلقد ربيت فتياتي على الخلق الكريم ،وهذا لا تفعله سوى الفتيات اللاتي لم تتم تربيتهن بطريقة سليمة.

ألا يدرك هذا الرجل أن ابنته التي يتحدث عنها بهذه الطريقة الملائكية هي المتهمة الوحيدة في جريمة قتل؟ كيف يتحدث بهذه الصورة وبهذا البرود!

- كيف عرفت زوجها الأول؟
- كان ابن صديق لي، وكان يعيش في الخارج، وحينما جاء كان يريد الزواج فأخبره والده عن ابنتي، واتفقنا وتمت الزيجة.
- وهل تمت الزيجة سريعًا؟
- نعم، شهر خطوبة واحد، فالعريس كان متعجلاً للغاية، وكأنه كان يدري أنها النهاية – وهزّ رأسها متأثرًا بعد أن ظهرت في عينيه لمحة من الذكريات.
- وماذا حدث بعد أن توفاه الله؟ أقصد ماذا حدث لسارة؟!

- لا شيء، كانت حالتها النفسية تتدهور، ولكنها بعد فترة وجيزة وبعد التقرب من الله؛ استطاعت أن تعود إلى حياتها، وتقدم لها آخر بعد عام ونصف تقريبًا، وكل شيء نصيب كما تعلم.
- وهل حدثت الزيحة بنفس السرعة؟!
- نعم، شهران على أكبر تقدير، لأنه يعيش في الأساس في اليونان ولقد جاء للزواج، وكان يُخطط لأن يأخذ سارة معه بعد قضاء شهر العسل.
- هل يمكنني أن أتحدث إلى والدتها؟!

تعجب الرجل كثيرًا من هذا السؤال، ثم قال: "إنها متوفية".

تبًا لقد نسيت هذه المعلومة، ثم سرعان ما تداركت الأمر وأنا أقول:

- رحمها الله.

ثم بسرعة أمسكت برأسي وكأن صداعًا تملكني ثم طلبت منه كوبًا من الماء، غادرني الرجل لجلب كوب الماء، نهضت من مكاني وسط الصالة، وكونت فكرتي المبدئية عن الرجل وعائلته، لقد ذكر التقرير أن والدتها تُوفت منذ اثني عشر عامًا، أي إنها كانت في العاشرة من عمرها تقريبًا، طفلة صغيرة فقدت أعز من تملك، بل كل من تملك إن صح القول، فالفتيات في هذا السن في أمس الحاجة إلى امرأة بجوارهن، هذا شيء بديهي، فالمرأة لا يفهمها إلا المرأة، هذا الرجل لا يُريحني لا أعرف لماذا! ولكن حدسي لا يكذب أبدًا، فهو بلحيته القصيرة غير المنتظمة وهيئته

المتدينة، عكس ما أشعره به، وأنا أفكر لمحت إحدى الفتاتين تنظر لي من خلف ستارة تفصل بين الصالة والممر الصغير الضيق الذي لمحته حين دخولي والذي يؤدي إلى الغرف، علمت أنني رأيتها ومع ذلك لم تتحرك، كانت نظرتها غريبة ثابتة تحمل بعض الخجل وتحمل أيضًا العديد من الكلام، حينها غافلني والدها وهو ينظر نظرة حيادية، أخذت منه الكوب وتناولته رغم عدم رغبتي في ذلك، ولكن لنقل إنها الطريقة المثلى لتدارك خطأ ما، في أن تشتت ذهن من أمامك.

ناولته الكوب ثم طلبت منه زيارة غرفة سارة، وبهدوء أخبرني أنها لا تملك غرفة وحدها، لأن بناته الثلاث يقمن في غرفة واحدة، والغرفة الأخرى خاصة به، المنزل برمته مكوّن من غرفتين فقط، ومع ذلك طلب من الفتاتين التوجه لغرفته لحين الانتهاء من عملي، وبعد دخولي الغرفة لم أجد شيئًا يثير انتباهي، بعض الآيات القرآنية، لا شيء آخر سوى أن الغرفة لا تبدو لي غرفة بنات مراهقات في مقتبل العمر، بل هي غرفة لسيدات وهبن أنفسهن لعبادة الله، مع المصلى والقرآن الذي يصدر من راديو صغير، وبعض الكتب عن الإسلام لبعض الشيوخ الذين لا أعرفهم، وعند خروجي من الغرفة كانت الفتاة تنظر لي نفس النظرة التي تود لو أن تنطق، بصراحة تامة كنت على وشك أن طلبها للاستجواب ولكن شيئًا داخليًا حدثني بأن أؤجل الأمر، ليس هنا، وليس في حضور هذا الرجل.

عدت إلى منزلي وأنا أفكر بأشياء عديدة، كانت نظرة أخت سارة تقلقني، كنت أدرك أنها المفتاح لأشياء عديدة، جلست في غرفتي ليلاً وأنا أدرس المعلومات القليلة التي حصلت عليها، من الغريب أن حياة سارة كانت فارغة، نعم "فارغة"، لا أصدقاء، لا اهتمامات حقيقية، لم يسبق لها العمل وهذا معروف من رتم حياتها المتسارع، زوجان أحدهما مشكوك في ميتته، والآخر تمّ قتله بدم بارد، هل يُعقل أن تكون صاحبة ذلك الوجه الملائكي قاتلة؟! ولم لا؟! فإليزابيث باثوري أسطورة الدم نفسها كانت ملكة متوجة بجمالها البارد.

في الصباح كنت أجلس بهدوء في كلية تجارة القاهرة أمام مكتب العميد الذي رحب بي حينما علم أن مهمتي رسمية، كان قد سمع بي كثيرًا وهذا شيء جيد لأنه سهل عليّ الكثير من الكلام، وفي غضون ساعة تمّ استدعاء مريم أخت سارة، استأذنني العميد وخرج من الحجرة وتركنا وحدنا، لم تتفاجأ الفتاة كثيرًا حينما رأتني ولا أُخفي عليك فقد بدت سعيدة بعض الشيء، الفتاة صاحبة نظرة ما خلف الستار، لم أكن أعرف تحديدًا من أين أبدأ كلامي، ولكن بعد أن فتحت الحديث ببعض الدردشة العادية عن الجامعة وكليتها تحديدًا؛ كنت أنظر إلى ملابسها التي لا تتناسب مع سنها ولا مع طريقة هذا العصر الماجن.. ولكن دعك من كل ذلك الآن.

- أريد أن أسألك سؤالاً مبدئيًا قبل أن أخوض في حديثي معك

– كنت ودودًا بشكل مبالغ فيه على عكس عادتي.

لم تنطق بكلمة، وهذا لا يعني الرفض بكل تأكيد، بينما استرسلت في حديثي وأنا أنتقي كلماتي:

- هل كنتِ تريدين أن تقولي شيئًا حينما كنتُ في منزلكم بالأمس؟

لمعت عيناها التي انسحب منها نور الحياة ولم تقل شيئًا، ليس بدافع الخوف أو التردد ولكنه بدافع الخجل الشديد الذي يحتويها، بل ويقبض على أنفاسها.

- هل تعتقدين أن سارة قاتلة؟!

لم ترد أيضًا وشعرت بانكماشها في مكانها، وكأنها تبحث عن مفرّ من هذا السؤال المفاجيء، ولكنني تداركت الأمر بسؤال آخر:

- هل كانت أختك سارة على علاقة بأحد قبل الزواج الأول؟!
- نعم.
- من؟! – كنت مندهشًا ومتعجبًا.
- زميل لها في الجامعة، ولكنها لم تخبر أحدًا سواي بذلك، ولكن ما سبب السؤال؟!
- وماذا حدث؟!

لمعت عيناها وقد ظهرت فيهما مسحة من الذكريات:

- لقد توفي

سكنتُ قليلاً وأنا أفكر فيما تقوله، ثم بعد أن تخلل بعض الصمت حديثنا قلت لها:

- متى مات؟!
- قبل أن تتزوج سارة في المرة الأولى، فلقد كان زميلها في الجامعة.
- وماذا حدث لسارة بعد أن مات؟
- لا شيء، في الحقيقة كنت متعجبة جدًا من ذلك، فلقد كانت أشبه بفتاة سعيدة، ولكن سرعان ما تدهور حالها بعد ذلك وعاشت فترة نفسية قاسية جدًا.
- هل حدث شيء بينهما مثلاً جعلها في البداية سعيدة بوفاة الرجل الوحيد الذي أحبته؟
- لقد كانت سارة محترمة جدًا ولا تؤمن بموضوع الحب تمامًا، كما أن تربيتنا تمنعنا من ذلك، فالحب حرام، الساقطات فقط من يسلمن قلوبهن لرجل قبل الزواج، فعلى الفتاة أن تحتفظ بقلبها وعقلها وجسدها للرجل المناسب الذي يأتي للزواج منها على سُنّة الله ورسوله، ولقد كنت متعجبة أن تقع سارة بالذات في الحب.
- سارة بالذات؟!
- نعم، لأنها كانت ملتزمة جدًا وتسخر من الفتيات اللاتي يصادقن شبابًا باسم الحب وتلك الأمور الفارغة التي أتت من الغرب الكافر.

كنت أتبين موقع كلماتها وأنظر إلى ما خلفها من طريقة تفكير. في الحقيقة كنت أشفق عليها وأشعر بهاون يدق على رأسي من خلال هذا الحوار. ولكن ما الجديد؟! فهذه إحدى قصص الأفكار الغريبة التي يتمّ بثها في عقول الصغار الآن ليخرجوا إلى العالم ويحطموه بأفكارهم السوداوية.

- وماذا حدث بالضبط قبل وفاة هذا الشاب؟! هل لاحظتِ شيئًا غريبًا مثلاً؟!
- نعم، جاءت سارة قبل وفاته بأسبوع وقد كانت غاضبة للغاية وهيئتها يبدو عليها العبث. وكأنها كانت في معركة. كانت عصبية إلى أقصى حد ولم تُرد التحدث إلى أحد. ولكنها بعد أن هدأت كانت تجلس معي أنا وأختي الأخرى. قالت لنا إن جميع الرجال متشابهون. يرغبون من المرأة شيئًا واحدًا. شرفها. فإن تمكنوا منها ألقوا بها في أول صندوق للقمامة. يسحقونها تحت أقدامهم القذرة. يجب التخلص من رجولتهم أولاً ليروا الحياة كما نراها نحن. كانت عدوانية في تلك الليلة على غير عادتها. فهي رقيقة بطبعها. خفت منها كثيرًا في تلك الليلة ولكنني تكهنت بأن شيئًا ما حدث بينها وبين ذلك الشاب. وكنت أُحذرها دائمًا. شعرتُ بانكسارها في الأيام اللاحقة ولكنني لم أتجرأ على التقرب منها. لكنها بعد يومين كانت هادئة. لا تتحدث إلا إذا طُلب منها ذلك. وحينما علمت

بالخبر كانت سعيدة وقالت إنه الانتقام الإلهي ممن يحاول كسر قلب فتاة شريفة.

لم أكن أريد أن أعرف أكثر من ذلك، فلقد رمت لي الفتاة الخيط الأول والجوهري في قضيتي هذه، لقد أهدتني ما بحثت عنه، ابتسمتُ بمودة وودعتها ودعوت الله أن ينقذها من أفكارها السوداء، ولكن أنت تعلم جيدًا "أن الله يساعد فقط من يساعدون أنفسهم"، ولكن هذه النوعية تحديدًا تحتاج لمساعدة أولاً لكي تستطيع أن تساعد نفسها، فأختها حاولت مساعدة نفسها ولكن للأسف لم تختر المساعدة المناسبة، فانتهى بها الحال قاتلة.

في منزل لا يخلو من مسحة أرستقراطية بالمعادي كنت أجلس في الصالة التي تتزين بلوحات رائعة، فيكتورية الطابع تعكس ذوقًا رفيعًا للغاية، جاءت امرأة خمسينية على قدر من الجمال ورحبت بي، كانت تلك هي والدة الزوج الأول لسارة عبد الهادي، كان الحزن يتملك من عينيها، ولكن لا تنسَ يا صديقي، أنا رجل لا تحركه العواطف، ولكن دعنا لا نُغفل الإنسانية التي هي محور عملي والقانون الطبيعي الذي يجب أن يهتدي به العالم، ولكني أعلم مسبقًا أنه لن يفعل. بعد أن عرفتها بنفسي وغرضي من الزيارة المفاجئة دخلت في صلب الموضوع حتى لا أُضيع وقتي/

- كيف ارتبطت سارة بابنك رحمه الله؟

- لقد كان والدها صديقًا لزوجي، كان مديرًا في الشركة التي يعمل بها، كان زوجي يُحبه لتفانيه وصدقه.
- هل عرفتِ سارة بالشكل الكافي؟
- بصراحة رغم براءتها إلا أنني لم أسترح لها يومًا، فهي مبالغة جدًا في تزمتها، ومتعصبة بعض الشيء لأفكارها التي تُطلق عليها أفكارًا إسلامية، وهذا لم يُعجبني، ولكن كان هذا ابني الوحيد بجانب ابنتي، ولم أستطع أن أُعارضه لأنه وقع في غرامها منذ اللحظة الأولى التي رآها فيها.
- لا أعلم حقًا ماذا أقول، ولكن حينما مات ابنك الوحيد ألم تُفكري ولو للحظة واحدة أن الأمر كان مريبًا بعض الشيء؟

نظرت لي نظرة طويلة وقد انكمش ما بين حاجبيها وكأنها تتبين موقع كلماتي، فقلت بهدوء وصوتي أصبح كالهمس ولكنه واضح:

- أعني بعد موت زوجها الثاني بعد فرحها بأسبوع واحد هو الآخر، ألم تُراجعي أفكارك أو تفكري بشيء ما بخصوص سارة؟! هل كان ابنك مثلاً يعاني من شيء ما؟! وأنا هنا أتحدث عن صحته بشكل عام.
- لا أعلم، ولكنني وفي جزء مني شعرت أنها مصدر شؤم لا أكثر، هناك بعض النساء اللاتي يكن مصدرًا للنحس، وأعتقد أنها ليست أكثر من ذلك، كما أن ابني كانت صحته ممتازة، ويمكنك أن ترى صوره، وهذه الصورة بالتحديد – وأشارت

إلى صورة معلقة تُغلقها شارة سوداء من الجانب الأيسر- آخر صورة تمّ التقاطها له وهو هنا في منزلي، قبل وفاته بيوم واحد.

نظرت إلى الصورة، يبدو أنه كان رياضيًا ويتمتع بصحة جيدة للغاية، في الحقيقة كان الفارق الجسماني بينه وبين سارة كبيرًا بشكل ملحوظ.

- كيف علمتم بوفاته؟!
- والد سارة اتصل بزوجي وأخبره بهدوء بعيدًا عني، كانت صدمة مدوّية.
- ولا تعلمين كيف عرف والد سارة بوفاته؟!
- كل ما أعلمه أن سارة اتصلت به وأخبرته بالأمر.
- أتقصدين أنها حينما علمت بوفاته اتصلت بوالدها بهذه البساطة وقالت له إن زوجها تُوفي؟
- لا أعلم في الحقيقة ولم يهمني أن أعلم، فلقد كنت غائبة عن الوعي لأيام طويلة بعد معرفتي بوفاة ابني الوحيد.
- هل قام طبيب مختص بمعرفة سبب الوفاة؟!
- بالتأكيد، لم يجد شيئًا غير عادي بشأنه، وتمّ الدفن بهدوء كما أخبروني، لأنني كما أخبرتك كنت غائبة عن الوعي تمامًا.

في طريقي إلى منزلي اتصلت برجلنا بدر السيوفي وأخبرته بأنني أريد زيارة مسرح الجريمة، سألني العديد من الأسئلة، أخبرته بأنني على وشك الإمساك بخيط ما، ولكنني أحتاج ليوم إضافي لكي تكتمل رؤيتي بشأن

هذه القضية، كان سعيدًا بذلك، متوجسًا ومترقبًا في نفس الوقت، ولكنني لا ألومه، فمشاعري لا تقل عنه في شيء، فهي قضية لم أتعرض لها من قبل، فكما تعلم القضايا المتشابهة كثيرة في عالمنا هذا، ولكنها تختلف حينما تبحث عن عدو مجنون يقود أفكاره بسرعة صاروخية مخترقًا كل حدود تصوراتك.

كنت أقف في شقة العروسين، أو لنقل المنكوبين، كان هناك شيء يحدثني بأنني سأجد ولو دليل واحد يؤكد لي نظريتي، دخلت بصحبة بدر السيوفي إلى غرفة النوم، بالمناسبة لقد نسيت أن أخبرك بأنني لم أجد لوحة واحدة معلقة في أي مكان في الشقة، لم يكن هناك شيء يدعو للفرح، رغم أنها شقة جديدة تُضاف إلى مجموع الشقق التي تبدأ حياة جديدة، في الحقيقة لم أجد ما يُعطيني الانطباع بثمة حياة تولد، لكنّ انطباعًا واحدًا كان يرتكز بقوة على أفكاري، بأن الموت كان ينتظرهما بشغف.

نظرت إلى السرير الذي وجدوا عليه الضحية طويلاً، تخيلت الأمر برمته، تخيلت كيف تمّت الجريمة، وتخيلت أيضًا كيف قام القاتل بهدوء بقطع عنصر الرجولة الذي طالما حاربه بأفكاره السوداء، لقد أغفل الجميع شيئًا مهمًا، أن من مات في الحقيقة هي سارة نفسها، لقد قُتلت منذ سنوات طويلة، قتلوا فيها الأنثى والإنسانية باسم الدين والواجب.

نظرت إلى بدر السيوفي وأنا أفكر ثم قلت:

- حينما وصلت هنا بصحبة فريق البحث الجنائي والطب الشرعى، ألم تجد شيئًا غريبا؟!
- ماذا تقصد؟!
- أقصد بما أنك رجل خبير في عملك وقد قضيت سنين طويلة في هذه المهنة، حين دخولك إلى المنزل، وبعد أن رأيت الجثة، ألم تلاحظ ما يريبك، شيئًا غير مألوف؟!

سكن قليلاً وهو يرمش بعينيه محاولاً التركيز، ثم قال:

- لم يكن هناك شيء غريب بالنسبة لي، ولكن وبصدق، ما أدهشني هي سارة نفسها، فلم تكن الزوجة المنهارة لوفاة زوجها مثلاً، أو القاتلة المصابة بالانهيار من بشاعة ما فعلته، ولم تكن مثلاً تهزّ رأسها كالمجنونة وتُقسم أنها لم تفعل شيئًا كأي متهم في قضية بشعة كهذه.
- بمعنى؟!
- بمعنى أنها كانت صلبة، هادئة، تُتابعنا وكأنها تُتابع مسرحية، تجلس - إن كنت دقيقًا في تعبيري - مستمتعة بما يجري!
- ألم تحاول الحديث معها؟!
- بالطبع حاولت وكل ما قالته: ليس لدي ما أقوله ولكن أنا لم أفعل شيئًا، فإرداة الله فعلت كل شيء.

تعجبت كثيرًا من وقع كلماته ثم قلت:

- والبصمات؟!
- لا بصمات في المنزل بأكمله كما ذكر التقرير الجنائي، سوى بصمات سارة وزوجها، وأداة الجريمة المستخدمة لا يوجد عليها بصمات، يبدو أنها قامت بإزالتها بعد أن أتقنت القيام بمهتها البشعة.
- وماذا عن والدها؟ ما هو انطباعك عنه؟!
- رجل غريب، ملتزم بشكل مبالغ فيه وكأنه يعيش في العصور الوسطى من الظلام، لم أحبه ولكن لا دليل ضده، ولا يوجد دافع حقيقي وراء هذه الجريمة، المجني عليه بلا أعداء، لا يملك من المال ما يجعل حتى مجنونًا يُفكر في قتله، شخصية عادية جدًا، ليست لها انتماءات أو اتجاهات قد تخلق له أعداء، ولهذا استعنت بك، أنا واثق أن المسالة كلها مسألة نفسية.
- وأنت على حق يا صديقي.
- هل عرفت الدافع الحقيقي؟!
- نعم، ولكن لنذهب الآن حتى ننتهي من هذا السخف ولتعرف الحقيقة كاملة.

كنت أجلس في مواجهة سارة وطلبت من بدر السيوفي أن يتركنا وحدنا، كنت أنظر لها بعينين متصفحتين، فأنا أعلم أنني على الطريق لإثارة الهاجس الذي عاش سنين طويلة مع سارة، كنت أعلم أنني موشك تمامًا على إغلاق تلك القضية إلى غير رجعة، ولكن لم تكن هذه هي

المشكلة، وقد تكون على خطأ إن اعتقدت أن الغاية من هذه الحكاية الغريبة هي فك طلاسم قضية غامضة، ولكنها الإنسانية التي تتعرى كل يوم وتُدفن بأيدي بشر تحت ادعاءات الدين والأخلاق، فلا يوجد هناك دين على مرّ التاريخ أمرنا أن نتجرد من آدميتنا باسم الواجب المقدس، ولا يوجد قانون أخلاقي واحد يمنح البشر الحق في التدهور الفكري إلى هذا الحد، حتى المجتمعات السرّية التي اشتهرت على مر التاريخ كانت غايتها حتى وإن كانت غير مقبولة إلا أنها كانت تحمل فكرًا ساميًا، ويمكنك إن كنت على معرفة أن تسأل ليناردو دافنشي وإسحاق نيوتن وبوسان وبرنيني وآخرهم جان كوكتو، كل هؤلاء كانوا يُدافعون عن الكأس المقدسة رغم غرابة تصرفاتهم ورفض بعض المؤرخين والمفكرين لهم، ولكن تبقى قضيتهم قضية سامية.

نظرت لها وأنا موقن أن كلماتي القادمة يجب أن يتم اختيارها بعناية، لأن كلمة واحدة تخرج بدون قصد أو بجهل قد تؤدي بها إلى كأس من نار قد يُقذف في وجهي في لحظة مسروقة من الزمن ومني أيضًا.

- رجلان ماتا في حياتك، أعلم أن هذا مؤلم جدًا، أؤمن أيضًا أنك بريئة ومستعد أن أذهب معك بشهادتي التي تؤكد براءتك.

لأول مرة تنظر لي، أستطيع أن أرى انعكاسي المدهش في عينها، كانت إلى حد ما متسائلة، علمت في هذه اللحظة أنني دخلت من الباب وما عليّ إلا تأكيد هويتي لطمأنة المضيف.

- العالم مليء بالأسرار يا سارة، مخيف، أكثر ما يُخيف فيه هم الرجال أنفسهم، أنت مثقفة ومتفوقة في حياتك، وتفهمين جيدًا ما أقول، فدومًا تُلصق التهمة بالأنثى التي جردها الرجال من أهميتها على مر التاريخ، بدءًا من حواء وانتهاءً بالمجدلية، وفي عالم الرجال يجب أن تصرخي في وجوههم لتحصلي على الخلاص، فالرجال يُقدّسون الحرب أما النساء فيكرهونها، ولكن هذه المرة أنتِ رفعت السلاح وقررتِ خوض الحرب وهذا يجعلك مثالاً يُحتذى به لفصيلة حواء.

اشتعلت عيناها بوهج غريب وهي تستمع إلى وقع كلماتي، يدها ترتجف رجفة خفيفة ولكنها واضحة، أخذت نفسًا عميقًا، فلا يُمكن التراجع الآن، واسترسلت بهدوء:

- أتعلمين؟ ستكون يومًا ما صورك على "تي شيرتات" السيدات والفتيات، سيهتفون باسمك في كل مكان، فأنت رمز الخلاص من ظلم الرجال المستمر منذ بداية التاريخ، ستكون أيضًا على المتاجر وفي قاعات السينما، المُخلّصة التي أتت لإنقاذ العالم.

أعلم أن صديقك الأول حاول اغتصابك، لا تفزعي، فهذا سر لا يعلمه أحد غيري، لقد حاولتِ أن تتجردي من فكرة الرجل النكرة، الظالم، راغب الجسد، فسقط ما تبقى منك بشأن الرجال، لقد كان والدك قاسيًا في تربيتك، قاسيًا إلى أبعد حد،

فصوّر لك الرجال دمئ ملعونة تحرق ما يقترب منها، سارة لا تقتربي من الرجال، سارة حافظي على شرفك فهو يكمن بين رجليك، سارة العقل في مجتمعنا الشرقي هو آخر ما ينظر له الرجل، سارة احتفظي بعذريتك، ولكنه لم يعلم أن كل هذا سيؤدي أن تحتفظي بعذريتك للأبد، في الوقت الذي قررتِ فيه أن تُحبي كأية فتاة، تأكدت لك وجهة نظر والدك.

كانت ملامحها ترتجف وتُصدر أنينًا غريبًا مرعبًا، لكن كان يجب الاستمرار، لا توقف الآن.

- سارة، الحقيقة تظل الحقيقة مهما أهملناها، مهما حاولنا التجرد منها أو أغفلناها، ستظل تلاحقنا حتى في أحلامنا، كان يجب الخلاص من زوجك الأول، وأنت طبيبة صيدلية، من السهل جدًا تركيب سم قاتل بلا آثار جانبية للقضاء عليه.

زاد أنينها وكانت تمسك بطرف المكتب بقوة وكأنها تُحاول التماسك، كنت أعلم تمامًا بأن الضغط وصل إلى مرحلة قاسية عليها، ولكن لا فائدة من الرجوع الآن.

- وجاء الزوج الثاني، الانتقام الحقيقي من فصيلة الرجال، الانتقام الحقيقي من التاريخ الملوث بظلمهم، لن يفوز بك أحد، لن تكوني راهبة في محراب أحدهم، لن تكوني سوى العذراء، قتلتيه لأنه يستحق مثل كل الرجال، وبعد ذلك

جردتيه من خطيئته التي يعيش بها، ليصبح بلا رجولة تمامًا، فما الذي يكسر الرجل حقيقةً سوى إخفاء الدليل الوحيد على كونه رجلاً؟ عضوه الذكري.

صرخت سارة بقوة وهي ترتجف، واتجهت نحوي بأظافرها فجأة وهي تقول بصوت مخيف: "نعم قتلتهما وسأقتل كل ما يحاول التقرب مني، سأقتل العالم كله".. اقتحم بدر السيوفي الغرفة بسرعة وهو يُمسك بها محاولاً تهدئتها وهو ينظر لي بعينين معاتبتين على ما حدث، بينما كنت أنظر لها بشفقة وقطرات بسيطة من الدماء من أثر خربشتها تحيط بعيني ووجهي، كنت أنظر لها وهي تقاوم بدر السيوفي بعينين لامعتين حزينتين، تحركت مشاعري لمرة نادرة، ولعنت العالم في نفسي.

بعد أن عاد الهدوء إلى الغرفة وجاءني الساعي بعصير الليمون المنعش؛ كان بدر السيوفي ينظر لي نظرة أعلمها تمامًا، كنت أستطيع أن أراه دون أن أنظر إليه، ثم قلت وأنا أنظر أمامي:

- أعلم سؤالك التقليدي، كيف جعلتها تعترف، ولكن السؤال الحقيقي: ما الذي أدى بفتاة كهذه لتصل إلى مثل هذه الحالة؟!

أخذت نفسًا عميقًا، وكأنني أستعد لإلقاء محاضرة:

- هل تسمع عن مرض اسمه "Androphobia"، بمعنى "رهاب الذكور"؟

أومأ رأسه بالنفي بعد أن ظهرت عليه علامات الحيرة، بينما استرسلت قائلاً:

- حالة هلع مرضي تصيب بعض "النساء" من عموم "الرجال".. وهذا الخوف يصل إلى حد التشنج ومنعهن من الزواج أو الحديث أو حتى النظر لصورة أي رجل.. وهذه الحالة (التي تُدعى Androphobia) تعود غالبًا إلى أيام الطفولة، حين تتربى الفتاة ضمن محاذير اجتماعية شديدة أو تتعرض لحادثة أليمة يتم ربطها مباشرة بـ"جنس الذكور"، وهذا ليس كل شيء بكل أسف مع حالتنا هذه، فهي تحمل أيضًا مرضًا نفسيًا مريبًا اسمه "RTS"، وهي بمعنى "صدمة الاغتصاب"، ولكن سارة لم تُغتصب، ولكن تأكد لها حقيقة الرجال، حيث تعرضت للاغتصاب بالفعل مع حبيبها الأول والأخير، الذي أكد لها الحقيقة المؤلمة عن عموم الرجال، فإن "RTS" أو صدمة الاغتصاب هو نوع من الصدمات النفسية يُعاني منها ضحايا جرائم الاغتصاب التي تشمل: اضطرابات السلوك الجسدي والعاطفي والمعرفي بين الأشخاص العاديين. أول من اكتشف ووصف هذه النظرية كانت الطبيبة النفسية آن ووليبرت بورغيس وعالمة الاجتماع ليندا هولمستروم ليتل في

عام ١٩٧٤ [١]. متلازمة صدمة الاغتصاب (RTS) هي عبارة عن علامات وأعراض وردود فعل نفسية وبدنية، هي في العادة علامات شائعة لمعظم ضحايا الاغتصاب بعد أشهر أو سنوات من الاغتصاب، وبعد أن تقوم بجمع كل ذلك في نفس شخصية رقيقة كسارة، ومع ظروف مجتمعية وتربوية قاسية كتربيتها: يمكنك أن تحصل على جثث في مشرحتك الخاصة. تقف أمامها مذهولاً إذا قارنتها بالجاني الذي يعد كائنًا أنثويًا لطيفًا، وفي الحقيقة هو كائن يحمل كل الذكاء لتنفيذ جرائمه، وبما أننا في مصر فأعتقد أنها ستحصل على الإعدام لا محالة، وإن لم تحصل: فيكفي أن يقتلها المجتمع بعد أن تخرج من هنا، أنا آسف يا صديقي، مهمتي هنا انتهت، ولكن وبصدق تام كرهت عالمكم.

خرجت من عند السيوفي وأفكار كثيرة تدور في خُلدي، في الحقيقة فكرة واحدة فقط آلمتني، كيف يكون العالم قاسيًا إلى هذه الدرجة؟! في منزلي الذي يغط في السكون، الهدوء الغريب في كل ركن فيه، كنت شاردًا أفكر، أفكر بعمق، أتعلم الحقيقة؟ أحمد الله أنني لست متزوجًا.. ولن أتزوج. لا تتعجب فأنا لست مصابًا بمتلازمة ما، ولكن هذا أفضل من أن أكون ضحية.. لمتلازمة شخص آخر.

أغلقت مذكرات د.كمال وأنا أشعر بأحاسيس متناقضة للغاية، لم يكن الرجل كما توقعت على الإطلاق، لم يكن مجنونًا، بل كان مجنونًا جدًا، ولكن كيف لا يُجن من يخوض تلك الحياة؟! ولكنني أدركت بين كل تفصيلة من حياته أننا لا نملك المعرفة الكاملة، بل إننا لا نملك شيئًا على الإطلاق، إنها الرحلة الغريبة التي نؤمن بها فنستميت في الوصول إلى ذروتها، ولكن مع ذروتها تكون هناك كلمة النهاية..

النهاية..

بالتأكيد إنها كلمة مرعبة..

حينما شرعت في النهوض من مجلسي لأعود إلى حياتي؛ وجدت صفحة كُتب عليها بخط أحمر وبشكل مختلف عن باقي الصفحات.. تنبهت ووقفت أمامها وعدت لأقرأ:

"بالمناسبة يا صديقي، عليك أن تنتبه جيدًا وأنت تقرأ مذكراتي القادمة لأنها حتمًا ستقودك إلى قاتلي، هذه هي مهمتك الحقيقية، فإن كانت حياتك بلا معنى، فأنت الآن تملك ما يجعل منها حقيقيًا.. لا تتعجب، كان عليّ أولاً أن أجعلك تُحب هذا العالم، لتكتشف البعد الآخر، والآن حان دورك لتمارس الحياة، حان الوقت لتصبح أحد أبطال هذه الحياة المجنونة والجموحة أيضًا".

صديقك: كمال الشريف

وقفت أمام الكلمات مذهولاً..

قتل.. بحث.. حكايات سرية..

"دكتور كمال مات مقتولاً؟!"

تمت بحمد الله

الفهرس

الكاتب في سطور

عمرو الجندي، كاتب روائي مصري، عضو اتحاد كتّاب مصر، درس الأدب الإنجليزي بجامعة ليفربول بالمملكة المتحدة، تتصدر أعماله الكتب الأكثر مبيعًا، حيث نفدت من روايته الأخيرة "٣١٣" خمس طبعات في أقل من أربعة أشهر، كما تم ترشيحه لجائزة الشيخ زايد في دورته الثامنة، ويُعتبر كتاب الغرباء هو مجموعته القصصية الأولى والعمل الرابع له.

صدر للكاتب

- فوجا
- ٩ ملي
- ٣١٣

للتواصل مع الكاتب

https://www.facebook.com/amr.algendy



Noon_publishing@yahoo.com

ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧

لم أكن أدري أن الرجل كان بمثل هذا الجنون، ولم أكن أُدرك أنه يحمل كل هذه التعاسة، ترك لي كراسة لعينة، متربة وبالية، كراسة ممتلئة بالأسرار، هذه كانت أولى كلماته لي "الأسرار"، وربما آخرها، تلك الكلمة المثيرة والغامضة، فنحن لم يجمعنا الحديث أبدًا لشعوري بالخوف منه كلما رأيته، وحتى الآن لا أعرف السبب الحقيقي وراء ذلك، والآن يختارني أنا تحديدًا لأكون صديق ما بعد الموت! يا ترى أي نوع من الأسرار يخفيه د. كمال الشريف داخل هذه الكراسة؟! ولماذا أنا بالتحديد الذي تم اختياره ليشاركه هذه الأسرار الخاصة؟! بالتأكيد هناك سبب!!

دعونا نخترق عالم د. كمال الشريف السري، العالم المتخصص فى عالم الجريمة وعلم النفس.



تصميم الغلاف : أسامة علام


ISBN 9789776436343

